بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره ونسترشده، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، والصلاة والسلام على سيدنا محمد في الأولين وفي الآخرين، وفي الملإ الأعلى إلى يوم الدين.

وبعد، فإننا عندما نتصفح أجواء السيرة النبوية العطرة، ننتقي منها المثل العليا، والنماذج الإنسانية الرائعة، ونتنسَّم منها الروح الإسلامية الخالدة، إنما نكشف لأمة الإسلام عن طريق الحق والصواب الذي يجب أن يسلكوه، ذلك الطريق الواضح الذي جَسَّدته لنا سيرة النبي العظيم سيدنا محمد، عليه الصلاة والسلام.

لقد كانت حياته قبل وبعد البِعْثَة هي الأنموذج الأمثل لحياة الناس في الدنيا، كيف يتعايشون مع خالقهم، وكيف يتعايشون مع أنفسهم ومع بني جلدتهم من حولهم، بل علمتهم حياة النبي محمد ـ ﷺ ـ كيف يتعايشون مع الحيوانات والنباتات حتى الجماد؛ لقد كانت بحقٍّ صورة حية خالدة لما ينبغي أن تكون عليه حياة الإنسانية.

وما أحوج الإنسانية ـ الآن ـ وهي تتخبَّطُ في ظلمات الجهل، وتعلن إفلاسها في قيمها ومبادئها البشرية ـ ما أحوجها وهي تقف على حَافَةِ الضياع أن تستضيء بهذه النماذج النبوية العظيمة، وأن تستبصر بها لِتَخْرُجَ من هذه الغياهب التي ظلامها بعضه فوق بعض.

إن سيرة النبيِّ ﷺ تنطق بأعظم المبادىء الخالدة التي سبقت مبادىء البشر جميعاً، وسبقت ما يسمى بمبادىء حقوق الإنسان؛ إن سيرته ـ ﷺ ـ أرست مبدأ حرية الإنسان، ومبدأ المساواة بين أجناس البشر، لا فرق بين عربيٍّ ولا عجميٍّ إلا بالتقوى، وهي بهذا تحارب التفرقة العنصرية بين بني الإنسان جميعاً، وأرست ـ أيضاً ـ مبدأ احترام العلم والعلماء، والإرتقاء بشأن العقل في ظل المبادىء الإسلامية الحميدة، وعلمتنا معنى الشورى، وزرعَتْ في أذهاننا الصورة الحقيقية للعدل والرحمة والحب والإخاء والتضحية من أجل الحق والصمود في وجه الطغاة والمتكبرين.

لذا كانت حاجتنا لإبراز سيرة النبيّ ـ ﷺ ـ وتجلية حقائقها ـ ماسّة بل وملحّة لنستكشف بها دروب حياتنا.

ونحن إذ نقدّمُ لقرائنا الأعزاء هذا العمل الإسلامي العظيم ـ إنما نركز في الدرجة الأولى على حفظ هذه السيرة النبوية ونقلها إلى الأجيال اللاحقة بالدرس والتعليق والتهذيب، فإن تحقيق سيرة سيدنا محمد ـ ﷺ ـ غاية عظيمة بل واجبة على الإسلام.

كما أن دراسة سيرة الرسول ﷺ ضرورةٌ حضارية وإيمانية؛ فالناس من لدن خَلَقَهُمُ الله ـ تبارك وتعالى ـ فريقان؛ فريق: يتعشق الحق ويموت دونه وينافح عنه، وفريق: يلج في الباطل، ويتأكل به ويعيش له، ذلك ما قررته قصة ابني آدم: (قابيل وهابيل) ورفض قول الحق على وضوحه وجلائه وارتضائه أن يبوء بإثمه وإثم أخيه؛ وذلك يقتضينا ـ كمسلمين ـ دراسة السيرة لفقه حق الله وبيانِ حال من اتبعه من الدنيا، واستمسك به، وديدنه تجاه الباطل في سيرة النبيين والمرسلين؛ ذلك الوجه الحق في التاريخ والسير؛ لذلك أُمِرَ النبي ﷺ بأن يقص لأمته سيرة النبيين؛ فقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: ٧١]، وقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الشعراء: ٦٦]، وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]، وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: ٤٥].

وبيَّن الذكر الحكيم هدف القصص، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١]؛ فقد أشار القرآن الكريم إلى أن قصص النبيين هدى ورحمة؛ فاستوجب ذلك تفصيل سير الأنبياء؛ للإهتداء بها وذلك أمرٌ واضحٌ من توزُّع قصص النبيين على شتى سور الذكر الحكيم، في كل سورة جزء من قصة نبي من المرسلين، حسبما تقتضيه طبيعتها، وحسبما تتوفر عليه من معالجة قضايا تختص به دون غيرها؛ حتى أوشك القرآن الكريم أن يكون كله قصصاً؛ تلك هي ضرورة دراسته الدراسة التي ينبه إليها الذكر الحكيم.

أمَا تَرَىٰ ما صنع الله بفرعون، وما علل به سبحانه لصنيعه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٢].

ولا أدلَّ من كون دراسة السير ضرورةً حضاريةً من توفر الغرب على درس تاريخ الأمم؛ لبيان المزايا والمساوىء.

وتمتاز السيرة النبوية على غيرها من السير بأنها حظيت بالنقد الممحص لكل ما أضيف إلى الرسول ﷺ وأنه لم يكتب عن هوى، ولا عن حقد وسوء قصد إلا ما ندر من كتابات

المستشرقين وأعقابهم؛ وقد نبه ﷺ لذلك فقال: «لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، وَلَكِنْ قُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»؛ فكان في ذلك كما وصفه ربه سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤].

والسيرة إذ تتصل بالنبي ﷺ ويقوم درسها على صحيح الثقة: تُبَاينُ منهج التاريخ، ولما يتوافر لها من أسباب الحيطة والتوثيق، لما تهيأ لمصادرهما من النقل الصحيح.

ولا شك أن للصحابة دوراً رائداً في حقل سيرة الرسول ﷺ، وهم على بصيرة بما ينقلون؛ كما شهد لهم القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

وما نبه إليه من احترامهم وتوقيرهم وتجنب سبهم في قوله: «لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبَاً مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ»؛ وذلك مما يوقع مفارقة هائلة بين السيرة والتاريخ لاختلافِ النزعاتِ في تناول أحداث التاريخ وتغيُّر ظواهره، ومِنْ بين تلك النزعاتِ نزعةُ التفسير الماديِّ للتاريخ تلك التي سيطرت على أفكار دعاة الشيوعية..

من أصلِ كل ذلك كانَتْ دراسة السيرة على هذا الوجه الجامع من خيرة أعمال الأئمة، وهذا الكتاب الجامع لسيرة النبيِّ ﷺ يبين للقارىء جوانبَ عدَّةً من حياة الرسول ﷺ يحسن عدها:

ما يتصل بنسبه الشريف ﷺ

وقد اقتضاه ذلك الجانبُ الرجوعَ بنسبه لبيان صفاء معدنه وكرم أصله، فهو الحسيب النسيب الشريف المنزَّه؛ فالعرب مقسمون عند المؤرخين إلى سلالات ينحدرون منها:

العرب البائدة: وهم العرب القدامى الذين لم يمكن الحصول على تفاصيل كافية عن تاريخهم، مثل: عاد وثمود وطسم وجديس وعملاق وسواها.

ثم العرب العرابة: هم أولئك الذين يضربون بنسبهم إلى يعرب بن يشجب بن قحطان؛ وهم يسمون بين أهل العلم بالعرب القحطانية.

ثم العرب المستعربة: وهم أولئك الذين ينحدرون من صلب سيدنا إسماعيل ـ عليه

السلام، ويطلق عليهم أيضاً: «العرب العدنانية»؛ وإنما أطلق عليهم هذا الاسم؛ لأن إسماعيل أباهم لم يكن عربيَّ العَصَبِ والصُّلْب، وإنما صاهر العرب وعايشهم وآكلهم وشاربهم، وتشارب اللغة من أفواههم، ومع أنهم عرب مستعربة إلا أنهم غَدَوْا أفضل العرب برسول الله ﷺ؛ كما قيل [من البسيط]:

وَكَمْ أَبٍ قَدْ عَلاَ بِابْنٍ ذُرَا شَرَفٍ ... كَمَا عَلاَ بِرَسُولِ اللهِ عَدْنَانُ

فعلَىٰ ما بين النبي ﷺ وبين عدنان من عدد اختلف فيه ما بين مقلٍّ ومكثر، وعلْمُ الحق في ذلك عند الله سبحانه، فقد روي أنه ﷺ كان إذا انتهَىٰ في النسب إلى معد بن عدنان أمسك، وقال: «كَذَبَ النَّسَّابُونَ»؛ واستدل لذلك بقول سبحانه: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان: ٣٨].

فهو ﷺ خيار من خيار؛ كما قال: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ فِرَقِهِمْ وَخَيْرِ الفَرِيقَيْنِ، ثُمَّ تَخَيَّرَ القَبَائِلَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ القَبِيلَةِ، ثُمَّ تَخَيَّرَ الْبُيُوتَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ بُيُوتِهِمْ، فَأَنَا خَيْرُهُمْ نَفْساً وَخَيْرُهُمْ بَيْتاً» ودونك عَمَّهُ أبا طالب يُفَاخِرُ بنسبه؛ فيقول [من الطويل]:

إِذَا ٱجْتَمَعَتْ يَوْماً قُرَيْشٌ لِمَفْخَرٍ ... فَعَبْدُ مَنَافٍ سِرُّهَا وَصَمِيمُهَا

وَإِنْ حَصَلَتْ أَنْسَابُ عَبْدِ مَنَافِهَا ... فَفِي هَاشِمٍ أَشْرَافُهَا وَقَدِيمُهَا

وَإِنْ فَخَرَتْ يَوْماً فَإِنَّ مُحَمَّداً ... هُوَ الْمُصْطَفَىٰ مِنْ سِرِّهَا وَكَرِيمُهَا

ومؤلَّف هذا الكتاب يجمع ما تناثر من السيرة والسنة من حيثُ نسبُهُ الشريف، وينظم هذه اللآلىء بيد صَنَعٍ: يخرج أسانيدها، ويفصل ويشرح غريبها، ويتعقب ضعيفها، ويقدح من منكسرها وموضوعها، فيريك بدائع من الزهر، ويجنيك الحلو اليانع من الثمر.

فِيمَا يَتَّصِلُ بِمَوْلِدِهِ الشَّرِيفِ

وقد قدمت إرهاصات لمولده الشريف، أفزعت كسرى وقيصر واهتز لمقدمه الوجود؛ فقد رووا ـ رحمهم الله ـ أنه «لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، ارتجس إيوان كسرى، وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوة، ورأى المُوبَذَانُ إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً، قد قطعت دجلة، وانتشرت في بلادهم، فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك فتصبر عليه تشجعاً، ثم رأى أنه لا يدَّخر ذلك عن مرازبته، فجمعهم، ولبس تاجه وجلس على سريره، ثم بعث إليهم فلما اجتمعوا عنده، قال: أتدرون فيما بعثت إليكم؟ قالوا: لا، إلا أن يخبرنا الملك، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتابُ خمود النيران، فازداد غمًّا إلى غمه، ثم أخبرهم بما رأى وما

هاله، فقال المُوبَذَان: وأنا ـ أصلَحَ الله الملك ـ قد رأيتُ في هذه الليلة رؤيا، ثم قصَّ عليه رؤياه في الإبل، فقال: أي شيء يكون هذا يا مُوبَذَانُ؟ قال: حَدَثٌ يكون في ناحية العرب ـ وكان أعلمهم من أنفسهم ـ فكتب عند ذلك: من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر، أما بعد فوجه إلي برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه، فوجه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن نفيلة الغساني، فلما ورد عليه، قال له: ألك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ فقال: لتخبرني، أو ليسألني الملك عما أحب، فإن كان عندي منه علم، وإلا أخبرته بمن يعلم، فأخبره بالذي وجه به إليه فيه؛ قال: علم ذلك عند خَالٍ لي يسكن مشارف الشام، يقال له: سَطِيحٌ، قال: فَأْتِهِ فاسأله عما سألتك عنه، ثم ائتني بتفسيره، فخرج عبد المسيح، حتى انتهى إلى سطيح، وقد أشفى على الضريح، فسلم عليه، وكلمه فلم يرد إليه سطيح جواباً، فأنشأ يقول [من الرجز]:

أَصَمُّ أَمْ يَسْمَعُ غِطْرِيفُ الْيَمَنْ ... أَمْ فَادَ فَأْزَلَّمَ بِهِ شَأْوُ الْعَنَنْ؟!
يَا فَاصِلَ الْخُطَّةِ أَعْيَتْ مَنْ وَمَنْ ... أَتَاكَ شَيْخُ الْحَيِّ مِنْ آلِ سَنَنْ
وَأُمُّهُ مِنْ آلِ ذِئْبِ بْنِ حَجَنْ ... أَزْرَقُ مُمْهَى النَّابِ صَرَّارُ الأُذُنْ
أَبْيَضُ فَضْفَاضُ الرِّدَاءِ وَالْبَدَنْ ... رَسُولُ قَيْلِ الْعُجْمِ يَسْرِي لِلْوَسَنْ
تَجُوبُ بِي الأَرْضَ عَلَنْدَاةٌ شَزَنْ ... لاَ يَرْهَبُ الرَّغْدَ وَلاَ رَيْبَ الزَّمَنْ
تَرْفَعُنِي وَجْنٌ وَتَهْوِي بِي وَجَنْ ... حَتَّىٰ أَتَى عَارِي الْجَآجِي وَالْقَطَنْ
تَلْفُهُ فِي الرِّيحِ بَوْغَاءُ الدِّمَنْ ... كَأَنَّمَا حُشْحِثَ مِنْ حِضْنَيْ ثَكَنْ

قال: فلما سمع سَطِيحٌ شعره رفع رأسه، يقول: عبد المسيح؛ على جمل مشيح؛ أتى سطيح؛ وقد أوفى على الضريح، بعثك ملك بني ساسان؛ لارتجاس الإيوان؛ وخمود النيران؛ ورؤيا الموبذان، رأى إبلاً صعاباً، تقود خيلاً عراباً، قد قطعتْ دجلة، وانتشرَتْ في بلادها، يا عبد المسيح، إذا كثرتِ التلاوة؛ وظهر صاحب الهراوة؛ وفاض وادي السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاماً؛ يملك منهم ملوك وملكات، على عدد الشرفات، وكل ما هو آت آت، ثم قَضَىٰ سطيح مكانه فنهض عبد المسيح إلى راحلته، وهو يقول [من البسيط]:

شَمِّرْ فَإِنَّكَ مَاضِي الْعَزْمِ شِمِّيرُ ... لاَ يَفْزَعَنَّكَ تَفْرِيقٌ وَتَغْيِيرُ
إِنْ يُمْسِ مُلْكُ بَنِي سَاسَانَ أَفْرَطَهُمْ ... فَإِنَّ ذَا الدَّهْرَ أَطْوَارٌ دَهَارِيرُ
فَرُبَّمَا رُبَّمَا أَضْحَوْا بِمَنْزِلَةٍ ... يَخَافُ صَوْلَهُمُ الأُسْدُ الْمَهَاصِيرُ
مِنْهُمْ أَخُو الصَّرْحِ بَهْرَامٌ وَإِخْوَتُهُ ... وَالْهُرْمُزَانُ وَشَابُورٌ وَسَابُورُ
وَالنَّاسُ أَوْلاَدُ عَلاَّتٍ فَمَنْ عَلِمُوا ... أَنْ قَدْ أَقَلَّ فَمَحْقُورٌ وَمَهْجُورُ

وَرُبَّ قَوْمٍ لَهُمْ صَحْبَانُ ذِي أُذُنٍ بَدَتْ تُلَهِّيهِمُ فِيهِ الْمَزَامِيرُ
وَهُمْ بَنُو الأُمِّ إِمَّا أَنْ رَأَوا نَشَباً فَذَاكَ بِالْغَيْبِ مَحْفُوظٌ وَمَنْصُورُ
وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ مَقْرُونَانِ فِي قَرَنٍ فَالْخَيْرُ مُتَّبَعٌ وَالشَّرُّ مَحْذُورُ

قال: فلما قدم عبد المسيح على كسرى أضجره بما قال له سطيح، فقال كسرى إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً كانت أمور وأمور، فملك منهم عشرة في أربع سنين، وملك الباقون إلى خلافة عثمان، رضي الله عنه.

ومشتهرة حادثة الفيل تلك التي واكبت مولد النبي ﷺ وغير ذلك، ذلك المولد الذي كان ثمرة الإلتقاء القصير بين عبد الله بن عبد المطلب، وآمنة بنت وهب.

فِيمَا يَتَّصِلُ بِرَضَاعِهِ

وقد ذكروا أن أول من أرضعته من المراضع ـ بعد أمه ﷺ ـ ثُوَيْبَةُ مولاة أبي لهب، وكان ذلك بلبن ابن لها يقال له: مسروح، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي.

وكانت السيدة حَلِيمَة بنت أبي ذؤيب السعدية ـ أم رسول الله من الرضاعة ـ تذكر أنها خرجت في طلب مرضع مع زوج وابنٍ لها صغيرٍ ترضعه، مع جملة من نساء ينتسبن لبني سعد بن بكر؛ لطلب الرضعاء في سنة تذكر أنها كانت سنة جدب وقحط، على أتان لها، ومعها ناقة كبيرة السن قد جف ضرعها من شدة القحط وقحط السنة، وكان صوت صبيها يتعالى من بكائه من شدة الجوع وخواء ثديها مما يرويه، وجفاف ضرع ناقتها، وذلك المركب الذي امتطوه يتباطأ بهم عن السير؛ لما يجده من الجوع. ذلك حال أم النبي ﷺ من الرضاعة، تصفه بنفسها عندما جاءَتْ لتطلب الرضعاء، وتذكر هذه السيدة أنه ما منهن امرأة إلا وقد عُرِضَ عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لها: إنه يتيم؛ نظراً لما كُنَّ يؤمِّلنه من نوال والد الصبي، فذلك عَائِدُ المطلوب لهن، فكن يقلن: يتيم، وما عسى أن تصنع أمه وجده؟! فكرهن الرضا به لذلك، وحظيت نسوة بني سعد برضعاء، خلا السيدة حليمة، فكرهت السيدة حليمة الرجوع من بين صواحبها، فعادت إلى ذلك الصبي اليتيم، بعدما كانت قد أجمعَتْ على الإنطلاق، فقال لها زوجها: لا عليك أن تفعلي؛ عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة!! فذهبت إليه فأخذته، وما حملها على أخذه سوى عدم وجود غيره، فأخذته ورجعت به إلى رحلها، ووضعته في حجرها، فأقبل على ثديها، فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، ولعلك تذكر أن صوت أخيه كان يتعالى

بالبكاء، فيطرد من أجفان والديه النوم. وأعجب من ذلك: أنها نهضت لناقتها تلك التي كان ضَرْعُهَا جافًا في مَقْدَمِهَا لطلب الرضعاء، فإذا بهذا الضرع يدر اللبن، فشربت وزوجها حتى انتهيا وقد صدرا عن الضرع رِيًّا وشِبَعاً وباتا بخير ليلة.

فأخبرها زوجها بأنها حظيت بنسمة مباركة؛ إذ لم تكن السيدة حليمة يوماً تطمع في أن تذكر هذا الذكر بين الناس، وأن تحظى بذلك التشريف، فحسبها من شرف أنها أمه، وشيء آخر هو أن أرض بني سعد ما كانت أرضٌ أَجْدَبَ منها في ذلك العام، فكانت أغنام بني سعد تروح جياعاً، وأغنام هذه السيدة تروح شباعاً.

وانتشر ذكر بني سعد بين الناس إلى اليوم، لتشرُّفِهِمْ بإرضاع النبي ﷺ وحسبهم من شرف ما كان يقوله محمد ﷺ لأصحابه: «أَنَا أَعْرَبُكُمْ، أَنَا قُرَشِيٌّ، وَاسْتُرْضِعْتُ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ».

وإخوته ﷺ من الرضاعة من بني سعد عبد الله بن الحارث، وأُنَيْسَة بنت الحارث، وحَذَافَة أو جذامة بنت الحارث، الملَّقبة بالشيماء، تلك التي كانت تَحْضِنُ رسول الله ﷺ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، ابن عم رسول الله ﷺ وحمزة بن عبد المطلب عمه ﷺ أخو النبي من الرضاعة من وجهين: من جهة ثُوَيْبَة، ومن جهة السعدية.

وقد بقي الرسول ﷺ مع بني سعد حتى إذا كانت السنة الرابعة أو الخامسة من مولده، وقع حادث شق صدره، ففي «مُسْلِم» عن أنس: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ القَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ إِلَىٰ مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَىٰ أُمِّهِ. يَعْنِي: ظِئْرَهُ ـ فَقَالُوا: أَنَّ مُحَمَّداً قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ»، وَخَشِيَتْ عَلَيْهِ حَلِيمَةُ بَعْدَ هَذِهِ الوَقْعَةُ حَتَّىٰ رَدَّتْهُ إِلَىٰ أُمِّهِ، فَكَانَ عِنْدَ أُمِّهِ.

كَفَالَتُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

كان لعبد الله بن عبد المطلب مكانةٌ خاصَّة في فؤاد عبد المطلب؛ ظهر ذلك في معاملة عبد المطلب حفيدَهُ محمَّداً ﷺ فرقَّ عليه رِقَّة لم يرقَّها على أحد من أولاده، فكان لا يدعه لوحدته المفروضة، بل يفضله على أولاده.

قال ابن هشام: كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له؛ فكان رسول الله

ﷺ يأتي وهو غلام جَفْرٌ حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخِّروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: «دعوا ابني هذا؛ فوالله إن له لشأناً، ثم يجلسه معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع».

وقد مات جده عبد المطلب وعمره حينئذ ثماني سنوات وشهران وعشرة أيام، وقبل أن يموت عهد بكفالته إلى عمه أبي طالب، وقد استسقى أبو طالب بوجه النبي ﷺ؛ فقد أخرج ابن عساكر في «تاريخه»: عن جَلْهَمَةَ بن عُرْفُطةَ، قال: «قَدِمْتُ مَكَّةَ، وَهُمْ فِي قَحْطٍ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَقْحَطَ الوَادِي، وَأَجْدَبَ العِيَالُ، فَهَلُمَّ وَاسْتَسْقِ! فَخَرَجَ أَبُو طَالِبٍ، وَمَعَهُ غُلاَمٌ، كَأَنَّهُ شَمْسٌ دُجُنٌّ، تَجَلَّتْ عَنْهُ سَحَابَةٌ قَتْمَاءُ، وَحَوْلَهُ أُغَيْلِمَةٌ، فَأَخَذَهُ أَبُو طَالِبٍ، فَأَلْصَقَ ظَهْرَهُ بِالْكَعْبَةِ، وَلاَذَ بِإِصْبِعِهِ الغُلاَمِ، وَمَا فِي السَّمَاءِ قَزَعَةٌ، فَأَقْبَلَ السَّحَابُ مِنْ هَهُنَا وَهَهُنَا، وَأَغْدَقَ وَاغْدَوْدَقَ، وَانْفَجَرَ الوَادِي، وَأَخْصَبَ النَّادِي وَالبَادِي، وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال: [من الطويل]

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ ... ثِمَالِ الْيَتَامَى عِصْمَةٍ لِلأَرَامِلِ

يَلُوذُ بِهِ الْهُلاَّكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... فَهُمْ عِنْدَهُ فِي نِعْمَةٍ وَفَوَاضِلِ

ونهض أبو وطالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه، وضمه إلى ولده وقدمه عليهم، وظل فوقه أربعين سنة، يعز جانبه، ويبسط عليه حمايته، ويناضل الخصوم من أجله.

وقد تبدى ذلك جليًّا عندما بلغ الرسول ﷺ اثنتي عشرة سنة، وارتحل به عمه أبو طالب تاجراً إلى الشام، فإذا ما وصل به إلى بصرى، وبها راهب يقال له: بَحِيرَىٰ، في صومعة له، وكان إليه علم أهل النصرانية، إليه يصير علمهم عن كتاب فيما يزعمون يتوارثونه كابراً عن كابر، فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى ـ وكانوا كثيراً ما يمرون به فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً؛ وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته؛ يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ في الركب حتى أقبل، وغمامةً تظلله من بين القوم. ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه. فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ، حتى استظل تحتها، فلما رأى ذلك بَحِيرَىٰ نزل من صومعته وقد أمر بطعام فَصُنِعَ، ثم أرسل إليهم، فقال: إني صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلكم، كبيركم وصغيركم، وعبدكم وحركم، فقال له رجل منهم: والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم، ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمرُّ بك كثيراً، فما شأنك اليوم؟! قال له بحيرى: صدقْتَ، قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم طعاماً، فتأكلون منه كلكم، فاجتمعوا إليه، وتخلَّف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنة في رحال القوم

تحت الشجرة، فلما رآهم بحيرى لم ير الصفة التي يعرف ويجده عنده، فقال: يا معشر قريش، لا يتخلفنَّ أحد منكم عن طعامي! قالوا: يا بحيري، ما تخلف أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدثنا سنًا، فتخلَّف في رحالنا، قال: لا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم، قال: فقال رجل من قريش مع القوم: واللاتِ والعزَّىٰ، إن كان للؤماً بنا أن يتخلَّف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم، فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً، وينظر إلى أشياء من جسده، وقد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرَّقوا قام إليه بحيرى، وقال له: يا غلام، أسألك بحق اللات والعزىٰ إلا أخبرتني عما أسألك عنه، وإنما قال له بحيرى ذلك؛ لأنه سمع قومه يحلفون بهما، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له: لا تسألني باللات والعزى شيئاً، فوالله ما أبغضت شيئاً قطُّ بغضهما، فقال له بحيرى: فبالله، إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه؟! فقال له: سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله ونومه وهيئته وأموره، فجعل رسول الله ﷺ يخبره، فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثم نظر إلى ظهره، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه موضعَهُ من صفته التي عنده، فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب، فقال: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني، قال بحيرى: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حَيًّا، قال: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟! قال: مات وأمه حُبْلَىٰ به، قال: صدقت، ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ ليبغنه شرًّا؛ فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده، فخرج به عمه أبو طالب سريعاً؛ حتى أقدمه مكة، حين فرغ من تجارته بالشام.

في هذا الوقت اشتدَّ حرص أبي طالب على محمد ﷺ.

زَوَاجُهُ مِنْ خَدِيجَةَ

كان عند زواجه منها في الخامسة وعشرين من عمره؛ لِمَا اشتهر عندها من أمره وصدقه وأمانته، حيث كانت تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء يجعله لهم، وكانت قريش قوماً تجاراً، فلما بلغها عن رسول الله ما بلغها من صِدْقِ حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضَتْ عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، فقبل رسول الله وخرج في مالها، وخرج معه غلامها مَيْسَرَةُ حتى قَدِمَ الشام، ثم باع سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري ثم أَقْبَلَ قافلاً إلى مكة، ومعه ميسرة، فلما قدم على خديجة بمالها باعَتْ ما جاء

به. فأضْعَفَ، وبلغها من ميسرة من سيرة محمد ﷺ بما ترتَّب عليه أن بعثَتْ إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا ابن عَمِّي، إني قد رغبت فيك لقرابتك، وشرفك في قومك، وأمانتك وصِدْقِ حديثك، ثم عرضَتْ عليه الزواج منها، وكانت حينئذ أوسَطَ نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً، كل قومها كان حريصاً على الزواج منها لو يقدر عليه، فلما قالَتْ ذلك لرسول الله ﷺ، ذكره لأعمامه وخطبها وتزوجها، وكان صداقها عشرين بَكْرةً، وكانت أول امرأةٍ تزوَّجها ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت، رضي الله عنها.

وقد ولدت لرسول الله أولاده كلهم ـ إلا إبراهيم والقَاسِمُ، وبه: كان يُكْنَىٰ ﷺ، والطاهر، والطيب، ورقية، وزينب، وأم كلثوم، وفاطمة، أما القاسم والطيب والطاهر فهلكوا في الجاهلية، وأما بناته فكلهن أدركْنَ الإسلام فأسلمْنَ وهاجَرْنَ، وأما إبراهيم فأمه مَارِيَةُ القبطيَّةُ التي أهداها إليه المُقَوْقِسُ عظيم قِبْطِ مصر.

وقد توفي أبناؤه جميعاً ﷺ في حياته سوى فاطمة ـ رضي الله عنها ـ فقد تأخَّرَتْ بعده بستة أشهر، ثم لحقت به.

فِي كَسْبِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لم يكن للنبي ﷺ عمل معيَّن في أول شبابه، إلا أن المشتهر عنه أنه كان يرعى الغنم، وكان قد رعاها في بني سعد فيما يروى، وكان يرعاها في مكة على قراريط، وقد عمل بالتجارة في مال خديجة ـ رضي الله عنها ـ وذلك ما ينبىء به الرسولُ عَنْ نفسه.

فِيمَا كَانَ يَشْتَغِلُ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَ خَدِيجَةَ

عن أبي هريرة قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلاَّ رَاعِيَ غَنَم»، فَقَالَ لَهُ أصحابُهُ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «وَأَنَا رَعَيْتُهَا لِأَهْلِ مَكَّةَ بِالقَرَارِيطِ» رواه البخاريُّ عن أحمد بن محمد المكي، عن عمرة بن يحيى به، ثم روى البيهقي من طريق الربيع بن بدر، وهو ضعيف، عن أبي الزبير عن جابر، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «آجَرْتُ نَفْسِي مِنْ خَدِيجَةَ سَفْرَتَيْنِ بِقَلُوصٍ» وروى البيهقيُّ من طريق حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن عمار بن أبي عمار، عن ابن عباس؛ أن أبا خديجَةَ زَوَّجَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وهو ـ أظنه ـ قال: سَكْرَانُ، ثم قال البيهقي: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان، أنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يعقوب بن سفيان، قال: حدثني إبراهيم بن المنذر، حدثني عمر بن أبي بكر المؤملي، حدثني عبد الله بن أبي عبيد بن محمد بن عمار بن ياسر، عن أبيه، عن مقسم بن أبي القاسم مَوْلَىٰ عبد الله بن الحارث بن نوفل؛ أن عبد الله بن الحارث حدَّثه أن عَمَّار

بن ياسر كان إذا سَمِعَ ما يتحدَّثُ به الناسُ عن تَزْوِيجِ رسول الله ﷺ خديجَةَ وما يُكْثِرُونَ فيه، يقول: أنا أعلَمُ النَّاسِ بتزويجه إياها، إنِّي كنتُ له تِرْباً وكنت له إِلْفاً وخِدْناً، وإني خرجْتُ مع رسول الله ﷺ ذات يوم، حتى إذا كنا بالحَزْوَرَةِ، أَجَزْنَا على أختِ خديجَةَ، وهي جالسةٌ على أَدَمٍ تبيعها، فنادَتْنِي، فانصرفْتُ إليها، ووقف لي رسولُ الله ﷺ، فقالت: أَمَا بصاحِبِكَ هذا مِنْ حاجة في تزويج خديجة؟! قال عَمَّار: فرجعتُ إليه فأخبرته، فقال: «بَلَىٰ، لَعَمْرِي» فذكَرْتُ لها قولَ رسولِ اللهِ ﷺ، فقالَتِ: اُغْدُوا عَلَيْنَا إِذَا أَصْبَحْنَا، فَغَدَوْنَا عليهم فوجدْنَاهُمْ قد ذبحوا بقرةً وألبسوا أبا خَدِيجَةَ حُلَّةً، وصفرت لحيته، وكَلَّمَتْ أخاها، فكلَّم أباه، وقد سقي خمراً، فذكر له رسول الله ﷺ ومكانه، وسألته أن يزوِّجه فزوَّجه خديجةَ وصنَعُوا من البقرة طعاماً، فأكلنا منه ونام أبوها، ثم استيقظ صاحياً: فقال: ما هذه الحُلَّةُ؟! وما هذه الصفرة؟ وهذا الطعام؟! فقالت له ابنته التي كانَتْ قد كلَّمَتْ عمَّاراً: هذه حُلَّةٌ كساكها محمد بن عبد الله خَتَنُكَ، وبقرةٌ أهداها لك فذبَحْنَاها حين زوَّجْتَهُ خديجةَ، فأنكر أن يكونَ زوَّجه، وخرج يصيحُ حتَّىٰ جاء الحِجْرَ، وخرج بنو هاشم برَسُولِ اللهِ ﷺ: فَجَاءُوهُ فكلَّموه، فقال: أين صاحِبُكُمُ الذي تزعُمُونَ أني زوجته خديجة؟ فبرز له رسول الله ﷺ، فلما نظر إليه، قال: إن كنتُ زَوَّجْتُهُ فسبيل ذاك، وإن لم أكن فعلْتُ فقد زوجته.

وقد ذكر الزهريُّ في «سيره» أن أباها زوَّجها منه، وهو سكران، نحو ما تقدم؛ حكاه السهيليُّ. قال المؤملي: المجتمع عليه أن عمها عمرو بن أسد هو الذي زوجها منه، وهذا هو الذي رجحه السهيلي، وحكاه عن ابن عباس وعائشة، قالت: وكان خويلد مات قبل الفِجَارِ، وهو الذي نازع تُبَّعاً حين أراد أخذ الحَجَرِ الأسود إلى اليمن، فقام في ذلك خويلد، وقام معه جماعة من قريش، ثم رأى تُبَّعٌ في منامه ما رَوَّعه، فنزع عن ذلك وترك الحجر الأسود مكانه.

فِي شَهَادَةِ الخُصُومَ لَهُ ﷺ قَدِيماً وَجَدِيداً

وشهادة الخصوم في هذا الباب لها وزنها الكبير؛ إذ تدلك على مبلغ الثقة التي كان يتمتع بها رسول الله عند الجميع، ولكن بعض الناس استغرب واستكبر، فأنكر دون وجود مبرِّر لهذا الإنكار، وهذه نصوصٌ تؤكِّد لك هذا الذي قلناه.

«أخرج البيهقي عن المغيرة بن شعبة قال: إن أول يوم عرفْتُ فيه رسول الله ﷺ أني أمشِي أنا وأبو جَهْلٍ في بعض أزقَّةِ مكَّةَ؛ إذْ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: «يَا أَبَا الحَكَمِ، هَلُمَّ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، أَدْعُوكَ إِلَى اللهِ»، فقال أبو جهل: يا محمَّدُ، هل أنت مُنْتَهٍ عن سَبِّ آلهتنا؟ هل تريدُ إلاَّ أن نشهد أنك قد بَلَغْتَ؟! فنحن نشهد أن قد

بَلَغْتَ! فوالله لو أني أعلم أنَّ ما تقول حَقٌّ، لاتبعتك، فانصرَفَ رسول الله ﷺ وأقبل عليَّ فقال: واللهِ، إني لأَعْلَمُ أن ما يقول حق، ولكنْ يمنعني شيء، إنَّ بني قُصَيٍّ قالوا: فينا الحجابة، قلنا: نعم، ثم قالوا: فينا السقايَةُ، قلنا: نعم، ثم قالوا: فينا النَّدْوَةُ، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكَّتِ الرُّكَبُ، قالوا: منا نَبِيٌّ، واللهِ لا أَفْعَلُ» وأخرجه ابن أبي شيبة بنحوه.

وأخرج الترمذيُّ عن عليٍّ أن أبا جهل قال للنبيِّ ﷺ إنَّا لاَ نُكَذِّبُكَ، وَلٰكِنْ نُكَذِّبُ مَا جِئْتَ بِهِ»؛ فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

«وأخرج ابن عساكر عن معاوية ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج أبو سفيان إلى باديةٍ له مُرْدِفاً هِنْداً، وَخَرَجْتُ أسير أمامهما، وأنا غلامٌ عَلَىٰ حِمَارَةٍ لي؛ إذ سمعْنَا رَسُولَ الله ﷺ، فقال أبو سفيان: انزل يا معاويَةُ حتى يركَبَ محمَّد، فنزلْتُ عن الحمارة، وركبَهَا رسولُ الله ﷺ، فسار أمامنا هُنَيْهَةً، ثم التفت إلينا، فقال: «يَا أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، وَيَا هِنْدُ بِنْتَ عُتْبَةٍ، وَاللهِ لَتَمُوتُنَّ ثُمَّ لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَيَدْخُلَنَّ المُحْسِنُ الجَنَّةَ، وَالمُسِيءُ النَّارَ، وَأَنَا أَقُولُ لَكُمْ بِحَقٍّ وَإِنَّكُمْ لأَوَّلُ مَنْ أُنْذِرُكُمْ» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿حٰمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ . . .﴾ [فصلت: ١ ـ ٢] حتى بلغ ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] فقال له أبو سفيان: أفرغْتَ يا محمد؟ قال: نعم، وَنَزَلَ رسول الله ﷺ عن الحمارةِ، وركبتُهَا، وأقبلَتْ هند على أبي سفيان: أَلِهَذَا السَّاحِرِ أنزلْتَ ابني، قال: لا واللهِ ما هو بِسَاحِرٍ ولا كَذَّاب» وأخرجه الطبراني أيضاً.

وروى البخاريُّ ومسلم قصة أبي سفيان عند هرقل؛ كما حدَّثَ بها أبو سفيان ابنَ عَبَّاسٍ، ومنها سؤاله لأبي سفيان هذا: «قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لاَ» وفي آخر القصة يقولُ هرقْلُ لأبي سفيان: «وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ».

وأخرج الشيخان والترمذي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤]؛ صَعِدَ ﷺ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ لِبُطُونِ قُرَيْشٍ؛ حَتَّى اجْتَمَعُوا فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟! قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلاَّ صِدْقاً، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ! قَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ يَا مُحَمَّدُ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا! فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد: ١].

مِنْ هذه النصوص يتبين لك أن الثقة بصدق محمد ﷺ كانت متوفِّرَةً، ولم يكن هذا الموضوع فيه شكٌ أبداً، وهذا الذي يعلل لنا:

ظاهرة الإيمان به مِنْ قِبَلِ مَنْ حاربوه واحداً فواحداً طَوْعاً لا إكراهاً؛ أمثال: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعمر بن الخطاب... ذلك لأنهم ما كانوا يَشُكُّونَ في أن محمَّداً صادق، ولكن فاجأهم بشَيْء لم يسمعوا به هُمْ ولا آباؤهم فأنكروه، حتى إذا ذَهَبَ هَوْلُ المفاجأة، وحكَّموا عقولهم ٱلْتَقَىٰ صِدْقُ الفكر بالثقة الأساسية بشَخْص محمد ﷺ؛ فتولد عن ذلك إيمان.

ظاهرة الإخلاص له بعد الإيمان: فبعضهم لم يؤمنْ إلا آخراً بعد أن غُلِبَ كبقايا قريش؛ فإنهم أخيراً غلبوا للإسلام، وكان يمنعهم من ذلك ثارات وأحقاد وشبهات وشهوات، حتى إذا دخلوا فيه تسليماً للأمر الواقع، وإذا بهم مُخْلِصُونَ لرسول الله ﷺ كَأَنَّمَ ما يكون الإخلاص، ومتفانون في الإسلام بعد أن زالت عن أعينهم غشاوات، من بعدها تبينوا أن محمَّداً هو الأخ الكريم والابن الكريم، فكانَتْ معرفتهم به وثقتهم بشخصيته أساساً لإخلاصهم في طريقهم الجديد الذي ساروا به بعد ذلك فَرِحِينَ.

وبعد: فهذه شهادة خصوم: بعضهم أَسْلَمَ بعد خصومة شديدة، وبعضهم مات على كفره؛ ولكن الجميع حتى في أَشد حالات الخصومة، كانوا مؤمنين أن محمَّداً ﷺ صادق.

فِي تَعَبُّدِهِ قَبْلَ الْبِعْثَةِ

يذكر أهل السير أن النبي ﷺ كان يتعبد قبل البِعْثَة على دين الحنيفية؛ وذلك في غار حراء، قال ابن كثير:

وإنما كان رسول الله ﷺ يحب الخلاء والانفراد عن قومه؛ لِمَا يراهم عليه من الضلال المبين من عبادة الأوثان والسجود للأصنام، وقويت محبته للخَلْوة عند مقاربة إيحاء الله إليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وقد ذكر محمَّد بن إسحاق عن عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان بن العلاء بن حارثة، قال: وكان واعيَةً ـ عن بعض أهل العلم ـ قَالَ: وكان رسول الله ﷺ يَخْرُجُ إلى حراء في كلِّ عام شهراً من السنة يتنسَّكُ فيه؛ وكان من نسك قريش في الجاهلية: يُطْعِمُ من جاءه من المساكين، حتى إذا انصرف من مجاورته، لم يَدْخُلْ بيته حتى يطوف بالكعبة، هكذا روي عن وهب بن كيسان أنه سمع عُبَيْد بن عُمَيْر يحدِّث عبد الله بن الزبير مثل ذلك؛ وهذا يدلُّ على أن هذا كان من عادة المتعبِّدين في قريش أنهم يجاورون في حراء للعبادة، ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المشهورة [من الطويل]:

وَثَـوْرٍ وَمَـنْ أَرْسَـىٰ ثَـبِـيـراً مَـكَـانَـهُ وَرَاقٍ لِـيَـرْقَـىٰ فِـي حِـرَاءٍ وَنَـازِلِ

وهكذا صوَّبه على رواية هذا البيت؛ كما ذكره السهيلي وأبو شامة وشيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي ـ رحمهم الله ـ وقد تصحَّف على بعض الرواة فقال فيه: وراق ليرى في حر ونازل ـ وهذا ركيكٌ ومخالفٌ للصواب؛ والله أعلم.

وحِرَاءٌ: يقصر ويُمَدُّ، ويصرف ويمنع، وهو جبل بأعلى مكَّة على ثلاثة أميال منها، عن يسار المارِّ إلى مِنَىٰ، له قلة شرفة على الكعبة منحنية، والغار في تلك الحنية؛ وما أحسن ما قال رُؤْبَةُ بن العَجَّاج [من الرجز]:

فَلاَ وَرَبِّ الآمِنَاتِ الْقُطَّنِ وَرَبِّ رُكْنٍ مِنْ حِرَاءَ مُنْحَنِي

وقوله في الحديث: «وَالتَّحَنُّثُ التَّعَبُّدُ» تفسير بالمعنى، وإلا فحقيقة التحنُّثِ: من حنث البنية؛ فيما قاله السهيلي: الدخول في الحنثِ، ولكن سمعت ألفاظاً قليلة في اللغة معناها الخروج من ذلك الشيء؛ كـ «تَحَنَّثَ» أي خرج من الحِنْث، وَتَحَوَّبَ وَتَحَرَّجَ وَتَأَثَّمَ وَتَهَجَّدَ، هو: ترك الهجود وهو النوم للصلاة، وَتَنَجَّسَ وَتَقَذَّرَ؛ أوردها أبو شامة. وقد سئل ابن الأعرابي عن قوله: يَتَحَنَّثُ، أي: يتعبد؟ فقال: لا أعرف هذا إنما هو يتحنَّفُ من الحنيفية دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال ابن هشام: والعرب تقولُ التحنُّثُ والتحنُّفُ، يبدلون الفاء من الثاء، كما قالوا: جَدَثٌ وَجَدَفٌ؛ كما قال رُؤْبَةُ [من الرجز]:

لَوْ كَانَ أَحْجَارِي مَعَ الأَجْدَافِ

يريد: الأَجْدَاثَ.

قال: وحدَّثني أبو عبيدة أن العرب تقول: «فُمَّ» في موضع «ثُمَّ»، قلت: ومن ذلك قول بعض المفسرين: وَفُومِهَا: أن المراد: ثُومُهَا.

وقد اختلف العلماء في تعبده ـ عليه السلام ـ قبل البعثة، هل كان على شرع أم لا؟ وما ذلك الشرع؟ فقيل: شرع نوح، وقيل: شرع إبراهيم؛ وهو الأشبه الأقوى، وقيل: موسى، وقيل: عيسى، وقيل: كل ما ثبت أنه شرع عنده، اتبعه وعمل به، ولبسط هذه الأقوال ومناسباتها مواضعُ أُخَرُ في أصول الفقه، والله أعلم.

الجبل الذي يقع في قمته هذا الغار يسمَّىٰ: «جبل النور»، وهو يقع إلى الشمال الشرقيِّ من مكة، ويبعد عنها حواليَّ خمسة كيلومترات، وصعود هذا الجبل شَاقٌّ للغاية، وقد يحتاج الصاعد إلى استعمال يديه ورجلَيْه في بعض الأحايين ليتقي السقوط، وفي قمة هذا الجبل بِرَكَةٌ من ماء لا ينقطع ماؤها صيفاً ولا شتاءً، وهذا المكانُ جَوُّهُ جميلٌ للغاية، ونقيٌّ من الأتربة، وجميلُ الهواء، والغار يشبه حجرةً صغيرة مدخلها إلى الأمام، وفي خلفها الجبل الشاهق، وأمر عجيب كيف كان يصعد الرسول ﷺ هذا الجبل ويختلي بهذا الغار.

فِي بِعْثَتِهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَبَدْءِ الوَحْي

من المعلوم بالضرورة أن جميع الرسل الذين اصطفاهم الله من عباده لم ينطقوا فيما بلغوه عن ربهم عن الهوى.

وعلى هذا النحو كان التكليف بالصلوات الخمس إلى الرسول ﷺ ليلة المعراج، دَعْ عنك ما يلوكه المستشرقون المادِّيُونَ من أنهم لا يكذِّبون محمداً ﷺ فيما أخبر به عن الوحي، ولكنهم يقولون: إن منبع ذلك من نفسه، وليس فيه شيء جَاءَ مِنْ عالم الغيب؛ لأن الغيب لم يثبت عندهم وجوده، وأيسر ما يُرَدُّ به افتراؤهم أمران:

أولهما: ما استفاض من أمر أمانة النبي ﷺ قَبْلَ مبعثه.

ثانيهما: أن الله تعالَىٰ حَرَّم على رسوله ﷺ أن يخوض فيما خَاضَ قومه من قَرْض الشعر والتعمُّل له؛ على ما يشهد به قوله سبحانه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة يس: ٦٩].

ولقد كان وحياً ذلك الذي يصدر عنه النبي ﷺ قولاً وفعلاً وتقريراً.

يذكر أهل السنة أن عمره عند البِعْثة كان أربعين سنة، وينقلون واقعة بدء الوحي.

قال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِيءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، وَكَانَ لاَ يَرَىٰ رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حَرَاءَ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ. وَهُوَ التَّعَبُّدُ ـ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا؛ حَتَّىٰ جَاءَهُ الحَقُّ، وَهُوَ فِي غَارِ حَرَاءَ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِىءٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِىءٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ، حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِىءٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ؛ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١ ـ ٥]؛ فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ ـ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي» فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلاَّ وَاللهِ لاَ يُخْزِيكَ اللهُ أَبَداً، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ

الحَقّ، فَٱنْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّىٰ أَتَتْ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى ٱبْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ ٱمْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخاً كَبِيراً قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ٱبْنَ عَمِّ! ٱسْمَعْ مِنْ ٱبْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ٱبْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَىٰ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَىٰ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي كَانَ يَنْزِلُ عَلَىٰ مُوسَىٰ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعاً، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا؛ إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟» فَقَالَ: نَعَمْ؛ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصراً مُؤَزَّراً، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ فَتْرَةً، (حَتَّىٰ حَزِنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ـ فِيمَا بَلَغَنَا ـ حُزْناً غَدَا مِنْهُ مِرَاراً كَيْ يَتَرَدَّىٰ مِنْ رؤوسِ شَوَاهِقِ الجِبَالِ؛ فَكُلَّمَا أَوْفَىٰ بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يَلْقِيَ نَفْسَهُ تَبَدَّىٰ لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ، وَتَقَرُّ نَفْسُهُ)[1]، فَيَرْجِعُ، فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الوَحْيِ غَدَا كَمِثْلِ ذَلِكَ، قَالَ: فَإِذَا أَوْفَىٰ بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّىٰ لَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، هَكَذَا وَقَعَ مُطَوَّلاً فِي «بَابِ التعبير من البخاري، قال ابن شهاب: وأخبرني أبو سَلَمَةَ بن عبد الرحمن؛ أن جابر بن عبد الله الأنصاري قَالَ: وهو يحدِّث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحَرَاءَ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَرَعَبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ١ ـ ٥] فحمي الوحي وتتابع، ثم قال البخاري: تابعه عبد الله بن يوسف، وأبو صالح، يعني عن الليث، وتابعه هلال بن داود، عن الزهري، وقال يونُسُ ومَعْمَرٌ: بوادره، وهذا الحديث قد رواه الإمام البخاري رحمه الله في كتابه في مواضع منه.

وأخرجه مسلم في «صحيحه» من حديث الليث به، ومن طريق يونس ومعمر عن الزهري. كما علقه البخاريُّ عنهما وانتهى سياقه إلى قول ورقة: «أَنْصُرْكَ نَصراً مُؤَزَّراً».

فقول أم المؤمنين عائشة: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ؛ فَكَانَ لاَ يَرَىٰ رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ» ـ يقوِّي ما ذكره محمد بن إسحاق بن يسار، عن عبيد بن عمر الليثي؛ أن النبي ﷺ: قال: «فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ وَأَنَا نَائِمٌ بِنَمَطٍ مِنْ دِيبَاجٍ فِيهِ كِتَابٌ،

---

(١) محاولة النبي ﷺ الانتحار في بداية مبعثه غير صحيحة، لأن الزهري قد قال هنا «فيما بلغنا» أي منقطع قال الحافظ ابن حجر (١٢/٤٤٦). وهو من بلاغات الزهري وليس موصولاً، فهو ضعيف.

فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَقْرَأُ؟ فَغَطَّنِي، حَتَّىٰ ظَنَنْتُ أَنَّهُ المَوْتُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي» وذكر نحو حديث عائشة سواء، فكان هذا كالتوطئة لما يأتي بعده من اليقظة، وقد جاء مصرّحاً بهذا في «مغازي موسى بن عقبة» عن الزهري «أَنَّهُ رأَىٰ ذَلِكَ فِي المَنَامِ، ثُمَّ جَاءَهُ المَلَكُ فِي اليَقَظَةِ».

وقد قال الحافظ أبو نُعَيْم الأصبهانيُّ في كتابه «دلائل النبوة»: حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جناب بن الحارث، حدثنا عبد الله بن الأجلح، عن إبراهيم، عن علقمة بن قيس، قال: إنَّ أول ما يؤتَى به الأنبياءُ في المنامِ حَتَّىٰ تهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحي بَعْدَ»؛ وهذا من قبل علقمة بن قيس نفسه، وهو كلام حَسَنٌ، يؤيِّده ما قبله ويؤيده ما بعده.

فِي أَطْوَارِ دَعْوَتِهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وقد مرت بثلاثة مراحل:

المَرْحَلَةُ الفَرْدِيَّةُ:

وقد آمن في هذه المرحلة زوجه وابن عمه علي، وزيد مولاه ثم دعا الرسول أبا بكر، وكانت له به صلة فآمن به، وعن طريق أبي بكر أسلم السابقون الأولون: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح، والأرقم بن أبي الأرقم، الذي اتخذت داره لتكون مقرًا للدعوة السرية للدين الجديد، ودخل مع هؤلاء مجموعة من الموالي والفقراء، وقد استمرت هذه الدعوة ثلاث سنوات.

دَعْوَةُ بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ:

وهي المرحلة التي تلت المرحلة الأولى، وكانت تنفيذاً لقول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وقد دعا النبي ﷺ بني عبد المطلب؛ ليجتمعوا به، فلما حضروا قال لهم: «إِنِّي مَا أَعْلَمُ شَابًا جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلَ مِمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ، فَلَقَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»؛ وَبَلَّغَهُمْ دَعْوَتَهُ، فَصَدَّقَ بِهِ بَعْضُهُمْ وَكَذَّبَ آخَرُونَ، وَكَانَ عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ هو وَزَوْجَتُهُ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ قَسْوَةً عَلَيْهِ، فقد هَتَفَ بِهِ أَبُو لَهَبٍ قائلاً: تَبًّا لَكَ، أَلِهَذَا دَعَوْتَنَا؟! فَنَزَلَ قولُهُ تعالَىٰ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد: ١]، إلى آخر سورة المسد.

الدَّعْوَةُ العَامَّةُ:

وكانت هذه الخطوة في الدعوة تنفيذاً لقول الله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: ٩٤]؛ فانطلق الرسول ﷺ على إثر نزول هذه الآية يجاهر بالدعوة، يدعو السادة والعبيد، والغرباء والأقربين، ثم يتجاوز مكة إلى البلاد الأخرى.

وقد تناول الكتابُ كلَّ جوانب حياة المصطفى ﷺ من حيث حياتُهُ البشريَّةُ وحياةُ أزواجه وحياةُ بنيه وحياةُ صحابته، ومِنْ حيث تعبُّدُهُ وصلاتُهُ وصفاتُهُ الخِلْقِيَّةُ والخُلُقِيَّةُ، وقد جمع في ذلك فأوعى، وصلى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

السِّيرَةُ بَيْنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ

لقد نالت حياة النبي ﷺ بما حَفِلَتْ به من أقوالٍ وأفعال وتقريرات عنايةَ العلماء قديماً وحديثاً، وكان تأليف العلماء في السيرة قديماً يحمل طابعاً يرغب عنه الجم الغفير من مسلمي العصر الحديث الذين لم يَكُنْ لهم إلمام علمي واسع؛ رغبةً في مطالعة أحوال النبي ﷺ؛ فلم يجدوا بُدًّا من اللجوء إلى الكتابات العصرية في السيرة النبوية، وكان من أفضل بما نَبَّهَ على ذلك المفكر الإسلامي الكبير أنور الجنديُّ مبيِّناً ما لها من مميزات وعيوب، وقد آثرنا إثبات ما نشر عنه في «مؤتمر السيرة النبوية» برمَّته تتميماً للفائدة؛ فقال:

إن العمل الذي قام به الكتاب العصريون لتقديم السيرة النبوية قد أدى دوراً لا بأس به، وأحدث آثاراً طيبة في نفوس المسلمين، ولكنه لم يكن عملاً أصيلاً على طريق التطور الطبيعي لكتابة السيرة من منطق المفهوم الإسلامي الجامع القائم على أساس التقدير الكامل للوحي والنبوة والغيبات والمعجزات.

ومن هنا كان عجزه وقصوره الذي جعله في تقدير الباحثين قائماً على التبعية والإحتواء للمناهج الغربية التي لم تكن عمليتها إلا مظهراً خادعاً يُخْفِي من ورائه الأهواء والخلافات بين الأديان، ونزعَةَ الإستعلاء الغربية، ومطامعَ النُّفُوذِ الغربيِّ في السيطرة على الفكر الإسلامي والتاريخ الإسلامي؛ حتى لا يحقق ابتعاثه الأصيل هدفاً يجدِّد حضارة الإسلام، ويفتح الطريق لقيام المجتمع الإسلامي.

لقد احتوى هذا العمل على مجموعة من الأخطاء الأساسية التي كان مصدرها تَبَنِّيَ أسلوب المستشرقين وتَبَنِّيَ وجهات نظرهم، وهم أساساً لا يعترفون بالإسلام ديناً خاتماً ولا بالنبي محمَّد، ولا يؤمنون بالوحي، ولا يفرقون ـ كما يفرِّق المسلمون ـ بين الألوهية والنبوة.

وفي مقدّمة هذا البحث، نؤكّد أنّ كتابات العصريين في السيرة النبوية كانت في عصرها أمراً محبَّباً أقبل الناس عليه وقُدِّمَتْ سيرة الرسول وعظمة الإسلام للجماهير التي كانت لا تلم بالدراسات العلمية إلا قليلاً.

فقد كتبَتْ هذه الفصول أول الأمر في المجلات الأسبوعية، الذائعة (السياسية الأسبوعية، والرسالة) مما كان لها أثرها في الإنتشار والذيوع، وقد اختلفت فعلاً عما سبقها من كتابات السيرة التي نشرت في مؤلفات لغلبة الأسلوب الصحفيّ الميسَّر.

ولقد كانت هذه الكتابات في تقدير المؤرّخين والباحثين على حالتين:

الحَالَةُ الأُولَىٰ:

العامل القريب والمباشر وهو ظهور حركةُ التبشيرِ المسيحيِّ الضخمةُ في القاهرة عن طريق الجامعة الأمريكية عام ١٩٣٢، وَتَنْصِيرُ عدد من الطلاب المسلمين بها، وكان ذلك جزءاً من موجة ضخمة قام بها الغرب بعد أن استردَّتِ الفاتيكان الأموال الطائلة التي كانت قد احتجزتها الحكومة الإيطالية عنها.

الحَالَةُ الثَّانِيَةُ:

أثر الحرب العالمية الثانية في نفوس الناس بالدعوة إلى الرَّجْعَةِ إلى الدين والتطَلُّعِ إلى آفاق جديدة تقدِّمها رسالات السماء، وفي مقدمتها الإسلام.

غير أن هناك عواملَ أخرَىٰ خفية وراء ظواهر الأحداث تحدَّثَتْ عنها كتابات الباحثين والمراقبين لهذه الأحداث منها:

أوّلاً: رغبة حزب الأحرار الدستوريين في كسب مشاعر الوطنيين بعد أن عُرِفَ عنه أنه الحزب الذي يجمع دعاة التغريب وأساطينه والذي صدرت من تحت عباءته الكتب التي أثارت الضَّجَة، وخالفت مفاهيم الإسلام الأساسية، وهزت مشاعر الناس، وفي مقدمتها (الشِّعْرُ الجاهليُّ لطه حسين)، و(الإسلامُ وأُصُولُ الحكم لعلي عبد الرازق)، وكانت الفكرة التي استقر عليها الرأي هو الدخول إلى مشاعر المسلمين من طريق الكتابة عن الرسول ﷺ (هذا بالنسبة لكتاب حياة محمد للدكتور هيكل).

ثانياً: الموقف الذي أحدثته الحَرْبُ العالمية من ائتلاف بين البلاشفة والرأسماليين في وجه النازية وما تسرَّبَ إلى البلاد العربية من دعايات شيوعية ورغبة الغرب في مواجهتها عن طريق تزييف مفهوم الماركسية عن البطولة الجماعيَّة ورد الإعتبار للبطولة الفردية التي

كانت عنواناً على الفكر اللِّيْبِرَالِيِّ الغَرْبِيِّ، ومن هنا كانت الكتابة عن البطولات الإسلامية من منطلق غربي؛ «هذا بالنسبة للعبقريات».

وقد ظهرت هذه الكتاباتُ متفرِّقة في الصحف: «حياة محمَّد» في ملاحق السياسة ١٩٣٢ على أنها ترجمة وتلخيصٌ لكتاب «إميل درمنجم»، وكانت تنشر تحت هذا العنوان: (حياة محمَّد» تأليف إميل درمنجم، تلخيص وتعليق الدكتور محمد حسين هيكل)، ثم ظهرت فصول «على هامش السيرة» في الأعداد الأولى من مجلة الرسالة التي صدرت ١٩٣٣ بقلم الدكتور طه حسين، أما فصول (عبقرية محمد) فقد بدأت عام ١٩٤٢ بقلم الأستاذ العقاد في أحد الأعداد السنوية الخاصَّة بالهجرة بعد أن اشتعلت الحرب العالمية الثانية بعامين.

وكان الكُتَّابُ الثلاثة من المعروفين في مجال الدراسات الأدبية والسياسية بأنهم عصريُّونَ ليبراليون عِلْمَانِيُّونَ، قليلو الإهتمام بالدراسات الإسلامية، بل كانت جريدة السياسة تحمل حملاتٍ ضخمةً على الإسلام (هيكل ـ طه حسين ـ علي عبد الرزاق ـ محمد عبد الله عنان)، وتؤازر الغزو الثقافي، بل لقد حمل الأستاذ العَقَّاد حملة ضارية على الكتب الإسلامية التي صدرت عام ١٩٣٥ في جريدة روز اليوسف اليومية، وعدَّها ظاهرةً خطيرةً، وقال: إن هذه الكتاباتِ بمثابةِ مؤامرةٍ على القضيةِ الوطنيَّةِ، وتردَّد يومها أن الدكتور محمد حسين هيكل قد أحرز قدراً ضخماً من الكسب الماديِّ من كتابه ومن ثَمَّ أصبحَتِ الكتابة الإسلامية موضع تقدير في نظر الكتاب، غير أن أخطر ما هنالك أن الدكتور هيكل وعلي عبد الرزاق أعلنا موقفاً خطيراً في مجلس الشيوخ عندما أثير النقاش في كتابات طه حسين، ووقفا للدفاع عنه وتَبَيَّنَ من ذلك أن الكتابة عن الإسلام لم تكن تصدر عن إيمان برسالة الإسلام (ديناً ودولةً)؛ وإنما كانت من الأعمال السياسية والحزبية، وإذا كانت كتب: حياة محمد، وعلى هامش السيرة، والعبقريات، قد هَزَّتْ وجدان الشعب المسلم وقتها، وأحدثت نوعاً من الإعجاب والتقدير؛ فإن هذا كان هدفاً مقصوداً من الجهات التي شجعت ذلك، وهو:

أَوَّلاً: مواجهة حركة اليقظة الإسلامية التي كانت تهدف إلى تقديم الإسلام كمنهج حياة ونظام مجتمع بكتابات إسلامية من أقلام لها مكانتها السياسية في الجماهير لتحويل التيار نحو المفاهيم العلمانيَّة والليبرالية، وهو ما يسمى (تقديم البديل) المتشابه ظاهريًا والمختلف جوهراً، وهو بهذا استجابةٌ ظاهريَّةٌ للموجة الإسلامية ومحاولةٌ لاحتوائها.

ثانيا: فرض المفهوم الغربيِّ على السيرة والتاريخ الإسلامي، وهو المفهوم المفرَّغ من الوَحْيِ والْغَيْبِيَّات والمعجزاتِ.

ولكن هذه الظاهرة بالإعجاب بكتب الليبراليين عن السيرة لم تَدُمْ طويلاً؛ فقد تكشَّفَتْ خفاياها، وظهر أن منهج الكتابة في هذه المؤلَّفات لم يَكُنْ إسلاميًا أصيلاً؛ وإنما تشوبه التبعية لمفاهيم الاستشراق والتَّغْرِيبِ؛ حتى يمكن أن يقال في غير ما حَرَجٍ: إن المؤلَّفاتِ الثلاثةَ الكبرى: (حياة محمد ـ على هامش السيرة ـ عبقرية محمد) هي نتاجٌ غربيٌ يعتمد على مذاهب الكتابة الغربية، ويخضع لكثير من أخطائها، ويَسْقُطُ بحسن نية وراء مفاهيمها الكَنَسِيَّةِ والمادِّية، ويختلف اختلافاً واضحاً عن مفهوم الإسلام الجامع.

ولقد تطوَّرَتِ الدراساتُ الإسلامية في ظل حركة اليقظة الإسلامية، واستطاعَتْ أن تتحرَّر من هذه المرحلة التي كانت تمثل التبعية للفكر الغربي في دراسات التاريخ الإسلامي وكتابة السيرة، وهي التي قامت على مفهومٍ يَتَّسِمُ بالتأويل للمعجزات، ومحاولةِ حَجْب الكثير من وجوه الإعجاز ومتابعة المستشرقينَ في مفاهيمهم لسيرة النبي الكريم.

وفي الكتب الثلاثة نجد أن العمل يبدأ غربيًا ثم يفرض على سيرة الرسول.

فالدكتور هيكل يبدأ عمله في كتابة السيرة بترجمة كتاب (أميل درمنجم) الكاثوليكيِّ... الفرنسيِّ، ويتبنَّىٰ كثيراً من آرائه التي يمكن أن توصف بالخطإ، أو عَدَمِ القُدْرة على فهم الإسلام، أو تبني عقائد النصارَىٰ، أو متابعة هدف يَرْمِي إلى التقريب بين الأديان، أو الدعوةِ إلى وحدة الأديان؛ وهو هدف ضَالٌ.

والأستاذ العقاد يبدأ عمله بمنطق غربيٍّ محض هو فكرة (العبقرية) التي تناولتها كتابات الغربيين شوطاً طويلاً عن نوع من الإمتيازِ أو الذكاءِ في مجال الفنِّ والموسيقىٰ والشِّعْر والقصَّة في الغرب، ويَسْحَبُ هذا الوصف على النبيِّ المؤيَّد بالوحْيِ وعلى العظماء من الصحابة دون تفرقةٍ واضحةٍ بين النبيِّ والصحابيِّ.

والدكتور طه حسين يعلن في غير ما حرج أنه استوحَىٰ (هامش السيرة) من كتاب جيل لومتير، عنوانه: (على هامش الكتب القديمة)، وأنه يحشد فيه كل ما استطاع من أساطير اليونان والمسيحية واليهودية والإسرائيليات.

وهكذا يتبيَّن تبعية هذه الدراسات أصلاً للفكر الإستشراقي.

ويمكن تصنيف الأخطاء التي وقعت فيها المدرسة التغريبيَّةُ في كتابة السيرة على هذا النحو:

أَوَّلاً: مُتَابَعَةُ مَنَاهِجِ وَدِرَاسَاتِ كُتَّابِ ٱلاِسْتِشْرَاقِ:

فقد عَمَدَ الكُتَّاب الكبار الثلاثة إلى البدء في كتابة السيرة من منطلق غربيٍّ استشراقيٍّ؛ فالدكتور هيكل مُعْجَبٌ بكتاب «إميل درمنجم» وما يحويه من آراء تقرب مسافة الخلاف بين

الإسلام والنصرانية؛ ومن ذلك نراه يتابعه في مجموعة من الآراء تختلفُ مَعَ مفهومِ الإسلامِ الأصيلِ، وإن كان هيكل قد رَدَّ على آراء المستشرقين في مسائل، إلا أنه قد خضع لمناهج المستشرقين ولمفهومهم في الفَلْسَفَة المادِّية، بالنسبة للمعجزات، وبالنسبة للإسراء والمعراج؛ وبالرغم من نوايا الدكتور هيكل الطيبة في تقديم صورة بارعة للرسول ﷺ؛ فإن موقفه من إنكار المعجزات والغيبيات وتَجَاهُلَهَا حتى وإن وَرَدَتْ في القرآن والسنة ـ على حد قوله ـ كان مأخذاً كبيراً في تعليل قيمة العمل الذي قام به.

فقد أنكر عدداً من المعجزات الثابتة بِصَرِيحِ القرآن ومتواتر السنة؛ كنزول الملائكة في بَدْر، وطير الأبابيل، وشَقّ الصدر، والإسراء، وأَنَّ (اقرأ) كانَتْ مناماً؛ وأَوَّلَ ذلك كلَّهُ؛ إرضاءاً للمنهج العلميّ الغربيّ الذي أعلنه وأعلن التزامه به؛ فاعتبر الإسراء سياحةَ الرُّوحِ في عالم الرؤى، ووصَفَ الملائكة الذين أَمَدَّ الله بهم المسلمين في غزوة بدر بالدَّعْم المعنويّ، ووصف طير الأبابيلِ بِدَاءِ الجدريّ، واعتبر شق الصدر شيئاً معنويًا، واعتبر لقاء جبريل بالنبيّ في حراء مناماً، وبذلك عَمَدَ إلَىٰ تفريغ تاريخ النبيّ من الحقائق الغيبية والمعجزاتِ وَقَصَرَ موقفه على أن للنبيّ معجزةً واحدةً هي القرآن الكريم، مع أن الخوارق والمعجزاتِ لا يمكنُ أن تتنافَىٰ في جوهرها مع حقائق العلم وموازينه، وقد سميت خوارقَ؛ لخرقها لما هو مألوفٌ أمام الناس، وما كان للمألوف أو العادة أن يكون مقياساً علميًا لما هو ممكنٌ وغَيْرُ ممكن، ولما كان الله تبارك وتعالى هو صَانِع النواميس؛ فإنه هو وحده القادرُ عَلَىٰ خرقها متى شاء؛ يقول الشيخ محمد زهران:

ولقد علَّل الدكتور هيكل إنكارَهُ جميعَ المعجزات المحمَّدية (غير القرآن) بأنها مخالفة للسنة الإلٰهية، وزعم أن روايات معجزاته ﷺ موضوعةٌ، قَصَدَ واضعها: إما أن يجعل لنبيِّنَا مثل ما لموسَىٰ وعيسَىٰ ـ عليهما السلام ـ وإما أن يشكِّكَ الناس في صحَّة آية: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ولا شك أن دعوى استحالة خَرْقِ العادات المُعَبَّرَ عَنْهَا في كتابه بمخالفة السُّنَنِ: يستلزم التسليمُ بها إنكارَ الإسلامِ من أصله وتكذيبَ الأديان كلِّها، ومنها إنكارُ الأحاديث التي أطبق على قبولها أئمةُ الحديث وغيرُهُمْ، مع تواترها والإجماع على مضامينها.

مَوْقِفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ مِنْ وَفَاةِ ٱبْنِهِ إِبْرَاهِيمَ:

كذلك فقد كانَتِ الصورة التي رسمها الدكتور هيكل عن حُزْن الرسول ﷺ لوفاة ابنه إبراهيم مما لا يتفق مع جلال النبوَّة وعظمة الرسالة؛ إذ صوره ـ صلوات الله وسلامه عليه

ـ واضعاً ولده في حَجْرِهِ، وعيناه تَذْرِفَانِ الدُّمُوعَ مدراراً، ولسانه يَنْطِقُ بألفاظٍ يشيعُ منها الْحُزْن والأَسَىٰ، وتقطر غمًّا وتأثراً مما يشبه أن يكون ضعفاً عن احتمال صدمة الحادث.

والحقيقة أن رسول الله ﷺ أسمَىٰ قدراً من أن يَصْدُرَ منه ما صوَّرَهُ الدكتور هيكل هياماً في الخيال والشعر والقصص، وإنما أظهر رسولُ الله ما أظهر مِنْ حُزْنٍ سامٍ وذَرَفَتْ عيناه دموعاً مطهرةً لا يذرفها إلا لله، ولا يمكنُ أن يكون الرسول ﷺ قد بَدَرَتْ منه الألفاظ التي نسبها إليه الدكتور هيكل منساقاً مع شعوره حين حَزِنَ هو على فَقْدِ ولده، ولأجل هذا غَيَّر اسم كتاب رحلته إلى أوروبا إلى عنوان (ولدي)؛ إن رسول الله يَعْلَمُ علم اليقين وحَقَّ اليقين: أن الله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وأن ولده إبراهيمَ لَنْ يعيش طويلاً؛ حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ولقد مات له ولدان من قبل احتسبهما في رِضاً وإيمان.

تَقَبُّلُ وِجْهَاتِ نَظَرِ «درمنجم» فِي مَسَائِلَ أَسَاسِيَّةٍ:

وقد أخذ على الدكتور هيكل تَقَبُّل وجهات نظر «إميل درمنجم» في تصوُّره أن النبيَّ قد تأثر بأهل الكتاب في الجزيرة العربية، أو في ذَهَابه إلى الشَّأم، أو في إرسال بعض أصحابه إلى الحبشة المسيحيَّة، فقد جَرَىٰ هيكل وراء عبارات درمنجم دون أن يتبيَّن مَكْرَهُ وخُبْثَهُ حين حاول أن يصوِّر دعوة النبيِّ أصحابَهُ إلى الهجرة إلى الحبشة؛ لأنها مسيحية، ويتساءل الدكتور حسين الهَرَّاوِيُّ الذي ناقش هيكلاً في هذه النقطة: هل حقيقةً كانت الهجرة إلى الحبشة؛ لأنها مسيحية، ويقول: إن درمنجم شأن المستشرقين بَتَر هذه القصة بصفة مشوِّهة للحقيقة، فلم يكن الدافعُ للنجاشيِّ وَرَعَهُ وتقواه، ولم يكن سبب عطفه ورحمتِهِ ذلك الدافعَ الدينيَّ، بل الدافع الحقيقي أن هذا النجاشيَّ كان عادلاً، وهذه هي الخلة التي ذكرها النبي، حين قَالَ: «لِأَنَّ فِيهَا مَلِكاً لاَ يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وَهَيَ أَرْضُ صِدْقٍ».

ومن مراوغات درمنجم تفسيره للآية الكريمة: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]، يريد درمنجم أن يقول: إن القرآن طَلَبَ إلى النبيِّ سؤال أهل الكتاب، وأنَّ الله تعالَىٰ رَضِيَ للناس الإسلام ديناً مع بقاء الأديان التي سَبَقَتْ، وحدةً مندمجةً فيما أسماه الكمالَ الروحيَّ، ولا ريب أن هذه مراوغةٌ، خطيرةٌ من الإستشراق يحاولُ بها أن يفسِّر الآياتِ القرآنيةَ تفسيراً يخدم بها أهدافه، والحقيقة أن الإسلام جاء ليظهره الله على الدين كله، وأن الأديان كلها التي سبقت كانَتْ موصِّلَةً إليه، لولا أن قادتها حرَّفوها.

ثانياً: ظَاهِرَةُ إِنْكَارِ المُعْجِزَاتِ وَتَأْوِيلِهَا إِرْضَاءً لِلْمَنْهَجِ الغَرْبِيِّ وَبِاسْمِ إِعْلاَءِ نَظْرَةِ العَقْل:

هذه الظاهرة واضحةٌ تماماً في كتابات هيكل وطه حسين والعَقَّاد، وقد قَامَتْ عليها كتاباتهم في (حياة محمد، وهامش السيرة، والعبقريات)، وكانت لها جذور ممتدَّة في كتابات الشيخ محمد عبده، وفريد وجدي، وقد هاجمها الشيخ مصطفى صبري شَيْخُ الإسلام في الدولة العثمانية في كتابه الضخم: (موقف العلم والعالم من رب العالمين).

وقد جرى الكُتَّابُ الثلاثة هذا المَجْرَىٰ باسم (المنهج العلمي الغربي).

والحقيقة أن المنهج العلميَّ هو منهج إسلامي الأصْلِ والمَصْدَرِ، على خلاف دعوَىٰ بعض المتأثِّرين بالدراسات الغربية، ولقد كان من أبرز أهداف التغريب التأثيرُ في أسلوب كتابة التاريخ الإسلامي، وفي مقدِّمة ذلك (سيرة النبي الأعظم)؛ إيماناً منهم بأن هذه الصفحاتِ الباهرةَ من شأنها إذا عُرِضَتْ عرضاً صحيحاً أن تبعث الأحاسيسَ العميقَةَ في قلوب شباب المسلمين؛ ومن هنا كانت محاولتهم المسمومَةُ في إدخال أسلوب عصريٍّ له طابَعٌ بَرَّاقٌ؛ ولكنه يخفي من وراء ذلك إطفاءَ الأضواء التي يقدِّمها هذا التاريخ من حيثُ الصلةُ بالله تبارك وتعالى، والإعجازُ الربانيُّ الواضحُ في كل مواقف حياة النبي ﷺ، وفي تاريخ الإسلام وفتوحاته، ولما كان هذا العملُ هُوَ بمثابة هدفٍ واضحِ الدلالة في مخطَّط الإحتواء الغربي الذي يرمي إلى التقليل من شأن البطولاتِ الإسلاميَّة ووَضْعِها مَوْضِعَ المقارنة مع البطولات الغربية من خلال النواحي المادية وَحْدَها، فقد حجبت هذه الدراسات جانباً كبيراً من أثرها المعنويِّ والروحيِّ الذي يهز النفوس ويملؤها بالثقة واليقين في عظمة هذا الدين الخاتِم، وفي سعة العطاء الرباني لنبيِّه.

ومن هنا كان ذلك الأسلوب المسمَّىٰ بالعلمي الذي اصطنعه كُتَّابٌ لهم أسماء لامعة، ولم تكن لَهُمْ سابقة في الدراسات الإسلامية، بل كانوا غارقين في دراسات الغرب وبطولاتِ رِجَالِهِ: (جان جاك روسو، فولتير، مونتسكيو، أرسطو... إلخ) في محاولةٍ للتقليلِ مِنْ قَدْر أحداث السيرة النبوية تحت اسم العقلانية وإنكارِ المعجزاتِ والجَوَانب الغيبية، والإعراضِ عن الجوانب ذات الصلة بالإيمان والعقيدة واليقين والتقوَىٰ وغيرها.

ولقد استطال الدكتور هيكل في مقدِّمة كتابه بإعجابه وتبنِّيه للطريقة العِلْمية الحديثة، وأشار إلى ميزاتها وأفضليتها، ولكن الشيخ محمد مصطفى المراغي في مقدِّمته لكتاب «حياة محمد» لم يَخْفَ عليه هَدَفُ هذا، فقال: «أما أن هذه الطريقة حديثة فهذا ما يعتذر عنه، وقد ساير الدكتور (هيكل) غيره من العلماء في هذا؛ ذلك لأنها طريقة القرآن كما اعترف هو، ولأنها طريقةُ علماء سلف المسلمين.

وهكذا تبيَّن للمدرسة الحديثة أن الإسلام هو واضعُ الأسسِ لهذا المنهج العلميِّ الذي أخذوا به، وإن لم يعطوه حقَّهُ من الأصالة الإسلامية، بل قَصَرُوهُ على الجوانب العاديَّة؛ ففاتهم خير كثير؛ نظراً لأن خلفياتهم مع الأسف كانَتْ غَرِبِيَّةً، ولم يكونوا قد قرءوا من التراث الإسلامي ما يمكِّنهم من معرفة الحقيقة كاملةً.

لقد كُتِبَتْ هذه الدراساتُ بالرَّغْمِ من حسن النية عند البعض بصورة قاصرةٍ خاليةٍ من الإيمان اليقينِ تحت اسم العلم الذي لا يعترفُ للنبيِّ ﷺ إلا بمعجزة واحدة هي القرآن، وكان من رأي فريد وجدي وهيكل الإعراضُ عن الخبر الصادق الذي ثَبَتَ في الكتاب والسنة، إذا عارض طريقَ العِلْمِ؛ وبذلك حجبوا عن السيرة النبوية أهمَّ جوانبها وأخطَرَهَا على الإطلاق، وهو: (جانب معجزة الوحي الإلٰهي وعَالَمِ الغيب).

ولطالما ردَّد هيكل وطه حسين وغيرهما كلمة العِلْمِ والمنهجِ العلميِّ، والحقيقةُ أنهم ما كانوا يَقْصِدُونَ (العِلْمَ التجريبيَّ) الذي يقوم في المعاملَ على أساس الأنابيق، وإنما العلم الذي قصدوا إليه والذي لُقِّنَ لهم هو الفلسفةُ المادِّية التي قدَّمها التلْمُودِيُّونَ، وكانت قد استفحلَتْ في الغرب بعد القضاء على الفلسفة المثالية المسيحية، وهي فلسفة التنوير كما يقولون؛ قامت على إنكار جوانب الإنسان الروحية والمعنوية، وتصويرِهِ بِصُورَةِ الحيوانِ والحيوانِ الناطقِ والخاضِعِ لشهوتَي الطعام والجنس، (ماركس، وفرويد)، وقد امتد هذا الأثر إلى علوم الاجتماع والأخلاق والتربية والأدب والسياسة جميعاً، لم يكن هذا في الحقيقة هو العِلْمَ، وما كانت هذه الصيحاتُ تساوي شيئاً؛ لأن هذه المفاهيم كانَتْ سرعان ما تتعثَّر وتسقط أمام المتغيِّرات؛ فضلاً عن أنه قد ثبت ـ من بعد ـ عَجْزُ العلم التجريبيِّ عن أنْ يقول: (كيف؟) وعَجْزُ الدراسات المادية أن تكشف سرائر العلوم الإنسانية.

ولقد كانت هذه الدراساتُ مع الأَسفِ خاضعةً لفكرتَيْنِ مسمومتَيْن قائمتَيْن في نفوس وعقول كُتَّاب الغرب والتغريب هما:

١ ـ فكرة (إخضاع الدين لمقاييس العلم) في أفق الفكر الإسلامي، كما فعل الغرب، وهي فكرة مردودة لعمق الفوارق بين الإسلام وبين المسيحية، وقد تبيَّن من بعد أنه لَيْسَ في الإمكان إخضاع الدين لمقاييس العلم.

٢ ـ تخليص الفِكْرِ الإسلاميِّ من سائر الغيبيات التي لا تَخْضَعُ لمقاييس العلم الحديث؛ ومنْ هنا كانت محاولة إخضاع السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي لهذا المفهوم، وهو ما جَرَىٰ عليه كُتَّابُ التغريب من استبدال السند والرواية وقواعد التحديث وشروطه، بأسلوب جديد (زائف) من الإستنتاج الشخصيِّ المتصل بذوقِ ومزاجِ كُلِّ كاتب على حدة،

فطه حسين تابع لمذهب العلوم الإجتماعية والعقاد تابع لمذهب العلوم النفسية، وهيكل تابع لمذهب تين وبرونتير... إلخ، هذا الأسلوب الذاتي خطير جدًّا؛ لأنه لا يقوم على قواعد أساسية علمية، وإنما يقوم على أساس (الظن وما تهوى الأنفس)، هذا الأسلوبُ يتيح لأصحابه أَنْ يَقْبَلُوا وقائع وأحداثاً، وأنْ يغضوا عن غيرها ما يختلف مع وجهتهم المسبَّقة، من هنا كان خطورة هذا المذهب في (استبعاد ما يخالف المألوف مما يدخل في باب المعجزات والغيبيات) في سيرة النبي ﷺ.

كذلك: فقد حاول دعاة التغريب الإستفادةَ من هذا الإتجاه فادعوا ملحظاً خطيراً هو القولُ بأن الغاية منها هو ما أُطْلِقَ عليه: (فكرة الاندماج الكليّ في الكمال الروحيّ) وأنها جميعاً وحدة متصلة تربط البشرية في فكرة واحدة.

وهذه محاولة مضلِّلة؛ لأن الأديان مترابطة مِنْ حيث إن أولها يوصِّل إلى آخرها، ولكنَّ رؤساء الأديان غَيَّروا وبدَّلوا؛ وبذلك جاء الإسلام مرَّةً أخرَىٰ يربط نفسه بدين إبراهيم؛ ليعيد هذه الوحدة في مفهومها الصحيح.

ثَالِثاً: إِنْكَارُ مُعْطَيَاتِ الرِّسَالَةِ الخَاتِمَةِ:

ومن ذلك ما أورده الدكتور زكي مبارك في كتابه (النَّثْرِ الفَنِّيّ) من أنه كان للعرب في الجاهلية نهضَةٌ علميةٌ وأدبيةٌ وسياسيةٌ وأخلاقيَّةٌ واجتماعيَّةٌ وفلسفيَّةٌ كان الإسلام تاجاً لها، أي أن الإسلام كان نتيجةً وتاجاً لتلك النهضة لا سبباً لها، يقول: لأنه لا يمكنُ لرجل فَرْدٍ مثلِ النبيِّ محمد ﷺ أن ينقل أمةً كاملةً من العدم إلى الوجود، ومن الظلمات إلى النور، ومن العبودية إلى السيادة القاهرة، كُلُّ هذا لا يمكن أن يقع من دون أن تكون هذه الأمة قد استعدَّتْ في أعماقها وفي ضمائرها وفي عقولها بحَيْثُ استطاع (رجلٌ واحدٌ) أَنْ يُكَوِّنَ منها (أمة متحدة) وكانت قبائلَ متفرقة؛ وأن ينظم علومها وآدابها بحيث تستطيع أن تفرض سيادتها وتجاربها وعلومها على أجزاء مهمة من آسيا وأفريقيا وأوروبا في زمنٍ وَجِيزٍ، ولو كان يكفي أن يكون الإنسانُ نبيًّا ليفعل ما فعله النبيُّ محمد، لما رأينا أنبياء أَخْفَقُوا ولم يصلوا؛ لأن أممهم لم تكن صالحة للبعث والنهوض.

وهذا واحد من إتهامات التغريب والاستشراق المسمومة حملها قلم رجل مسلم اعتقد هذا الإعتقادَ وتَعَلَّمَ في الغرب؛ يُحَاوِلُ أن يرد نهضة العرب بعد الإسلام لا إلى النبوة والرسالة وما أنزل الله على الرسول منْ دينٍ، ولكن إلى علوم وآداب وتجارب كانَتْ عند العرب، وأنَّ كل ما فعله النبيُّ هو أنه نَظَّمَهَا حتى استطاع أهلها أن يسودوا في القَارَّات الثلاث في زمن وجيز، يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي: إن تاريخ العلوم في الأمَّة

العربية بعد الإسلام معروفٌ؛ كما أن مقاومة العرب للنبيِّ ودعوتِهِ ومحاربتَهُمْ له ولها معروفةٌ، ولكنَّ الرجل ينكر التاريخ ويفتري تاريخاً آخر، ويزعم زعماً لا يجوز ولا يستقيم في منطقٍ أو تفكيرٍ، إلاَّ إذا كان القرآن كلام النبي، كلام محمد العربي، لا كلام الله؛ عندئذ فقطْ يعقل أن يكون العربُ على ما وصف الدكتور من نهضةٍ وعِلْم وأدب؛ لأن القرآن أكثر من نهضة وعلم وأدب، ولا يعقل إنْ كان كلامَ بَشَرٍ أن يأتي صَاحبه في أمة جاهلة كالتي أجمع على وجودها قبل الإسلام مؤرِّخُو اللغةِ العربية من شرقيين ومستشرقين، ومؤرخو الإسلام.

وهكذا نجد الدكتور زكي مبارك يَهْدِرُ مقام النبوة الإسلامية بمقاييسِ المادِّية البحتة التي صَوَّرَتْ له كما صَوَّرَتْ للمستشرقين أنه من المستحيل أن تؤدِّيَ رسالةُ النبيِّ محمَّدٍ في خلال بضعة عشر عاماً إلى قيام هذا المُلْك الباذخ، وهذا هو إنكار المعجزات والغيبيات في فهم السيرة النبوية وتاريخ الإسلام.

رَابِعاً: إِحْيَاءُ الأَسَاطِيرِ فِي سِيرَةِ النَّبِيِّ:

يقول الدكتور طه حسين في بَحْث نشره في كتاب (الإسلام والغرب) الصادِرِ عَامَ ١٩٤٦ في باريس: لقد حاولْتُ أن أقصَّ بعض الأساطير المتصلة بالفترة التي سبَقَتْ ظهور النبي ﷺ، ثم قصصت مولده وطفولته، ونشرت هذه السلسلة بعنوانِ مُقْتَبَسٍ من جيل لوميتر، وهو: (على هامش السيرة)، ويتحتَّم أن نعترف بأن كتابين فرنسيين كانا بمثابة الشرارتين اللتين أشعلَتْ موقدين كبيرين: أحد الكتابين لجيل لوميتر عنوانه: (على هامش الكتب القديمة)، والثاني: (حياة محمد لإميل درمنجم).

أما كتاب جيل لوميتر: فإني بعد أن شُغِفْتُ به كثيراً، وضعت في نفسي الأسئلة الآتية:

هل يمكن إعادة كتابة مآثر الفترة البطولية في تاريخ الإسلام في أسلوبٍ جديدٍ، أم أنه يتعذَّر ذلك؟ وهل تصلح اللغة العربية لإحياء هذه المآثر؟

وقال عن كتاب: (على هامش السيرة):

هذا الكتاب من عمل المُخَيِّلَةِ: اعتمدت فيه على جوهر بعض الأساطير، ثم أعطيت نفسي حرية كبيرة في أن أشرح الأحداث وأخترع الإطار الذي يتحدَّثُ عن قرب إلى العقول الحديثة مع الاحتفاظ بالطَّابَعِ القديمِ.

وكان الدكتور طه يتحدَّثُ بهذا إلى المستشرقين في أول مؤتمر لِلْحِوَارِ بين المسيحية والإسلام، ويُعَدُّ كتابه هذا خطوةً في هذا السبيل من حيث دمج الأديان كلِّها في كتاب

واحد، وفي اختراع أَخْطَرَ بدعةً من إحياء الأساطير في الأدب العربي، هذا ما كشف عنه طه حسين بعد سنوات طويلة من ظهور: (على هامش السيرة)؛ فماذا كان موقف الباحثين منه؟ يقول صديقه وزميل دربه الدكتور محمد حسين هيكل:

أستميح طه العُذْرَ إن خالفته في اتخاذ النبيِّ ﷺ وعصره مادَّةً لأدب الأسطورة، وأشار إلى ما يتصل بسيرته ﷺ ساعَةَ مولده، وما رُوِيَ عما حَدَثَ له من إسرائيليات رُوِّجَتْ بعد النبي، ثم قال:

ولهذا وما إليه يجبُ في رأيي ألاَّ تُتَّخَذَ حياة النبي ﷺ مادَةَ الأدبِ الأسطوريِّ، وإنما يتخذ من التاريخ وأقاصيصه مَادَّةٌ لهذا الأدب، وما اندثر أو ما هو في حكم المندثر، وما لا يَتْرُكُ صدقُهُ أو كِذبُهُ في حياة النفوس والعقائد أثراً ما، والنبيُّ ﷺ وسيرته وعصره يتصلُ بحياة ملايين المسلمين جميعاً؛ بل هي فلذة من هذه الحياة، ومن أعز فلذاتها عليها وأكبرها أثراً، وأَعْلَمْ أن هذه (الإسرائيليات) قد أريد بها إقامة ميثولوجية إسلامية؛ لإفساد العقول والقُلُوب من سواد الشعب، ولتشكيك المستنيرين ودَفْعِ الريبة إلى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه ﷺ؛ فقد كانت هذه غَايَةَ الأساطير التي وُضِعَتْ عن الأديان الأخرى؛ من أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين في جميع العصور؛ لتطهير العقائد من هذه الأوهام.

ولا ريب أن كلام الدكتور محمد حسين هيكل هذا هو اتهام صريحٌ لطه حسين في اتجاهه وتحميله مسئولية من أخطر المسئوليات، وهي:

إعادة إضافة الأساطير التي حَرَّر المفكرون المسلمون سيرة النبيِّ ﷺ منها طَوَالَ العصور، وإعادَتُهَا مرة أخرَىٰ لخلْقِ جوٍّ معيَّن يؤدي إلى إفساد العقول في سواد الشعب، وتشكيكِ المستنيرين، ودفعِ الريبة إلى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه ﷺ.

وهذا الذي كشفه هيكل ما زَالَ كثيرون يَجْهَلُونَهُ، وما زال المتابعون لحياة الدكتور طه حسين وتحوُّلاته يرون أن هذا أخطرُ تَحوُّلٍ له، وأن هذا التحوُّل جَاء ليخدَعَ الناس عن ماضيه وسابقته في إذاعة مذهب الشَّكِّ، وطارَتِ الدعوات تقول: إن طه حسين عاد إلى الإسلام، وإنه يكتب حياة الرسول، ولم يكن هذا صحيحاً على الإطلاق؛ ولكنه كان تحولاً خطيراً وفق أسلوب جديد لضَرْبِ الإسلامِ في أَعَزِّ فلذات حياته، وهي سيرة الرسول الأمين ﷺ، ولقد دمغه هيكل حين قال: لقد تحوَّل طه الرجل الذي لا يَخْضَعُ لغير مَحْكَمَةِ النقد والعَقْل إلى رجلٍ كَلِفٍ بالأساطير يعمل على إحيائها، وإن هذا ليثير كثيراً من التساؤل؛ إذ إن طه وقد فَشِلَ في تثبيت أغراضه عن طريق العَقْل والبحث العلميِّ، لجأ إلى

الأساطير ينمّقها ويقدّمها للشعب؛ إظهاراً لما فيها من أوهامٍ في ظاهرها تَفْتِنُ الناس.

وقد كان هذا مصدراً لما أورده الأستاذ محمّد النايف في كتابه «دراساتٌ عن السيرة» حيث قال: إن (على هامش السيرة) هو في حقيقته «على هامِشِ الشعر الجاهلي» ومتمّم له؛ فهو على طريق تطاوُلِهِ على الإسلام، ولكنْ مع المراوغة والمداهنة.

ومن أبرز ما يُلاَحَظُ أنه خلط تاريخ الإسلام بأساطيرِ المسيحيَّة واليهوديَّة وقساوسة مصر والشام وخَيْبَرَ ونصارَى اليمن، كما عُنِيَ عنايةً كبيرةً بأساطير اليونان والرومان، وخَلَطَ هذا كله خلطاً شديداً مع سيرة النبي، وأراد بذلك إثارة جَوٍّ من الإضطراب بين الإسلام المتميِّز بذاتيته الخاصَّة وبين ما كان قبل الإسلام من أساطير وخرافات، وقد اهتم بتراث اليهود، فقدَّم لهم قصة (مُخَيْرِيقٍ) اليهودي.

وقد أخذ في كتابه بالأحاديث الموضوعة وفي نَفْس الوقت رَدَّ أحاديث صحيحة؛ لأنها خالَفَتْ هواه، وعَوَّلَ كثيراً على الإسرائيليات التي جاءَتْ في تاريخ الطبري، وأَكْثَرَ من إيرادها، وحَشَدَ قدراً كبيراً من الأساطير في قصَّة (حفر زمزم) على يد عبد المطلب، وبالغ في قصة ولادة الرسُولِ ﷺ مع أنه لم يَثْبُتْ منها إلاَّ حديث واحد، وأَخَذَ بالأخبار الموضوعة في قصَّة (زينب بنت جحش)، وجَسَّم بَعض المعجزات التي حَدَثَتْ للرسول ﷺ عند مرضعته حليمة السعدية، وأثناء سفر النبيّ في تجارة خديجة ـ رضي الله عنها ـ وقد خصَّ الشياطين باهتمام بالغ، فتوسع في الحديث عنهم، وصوَّر مؤتمراً يتصدَّرُهُ إبليس للشياطين، ورَسَمَ صورةً للشيطان الذي حَضَرَ خلاف قريشٍ على الحَجَر الأسود، وكان على شكل شيخ نجديٍّ.

وعلى نُدْرَةِ الصفحات التي خصَّصها لسيرة الرسول ﷺ، جاءت هذه الصفحات مملوءة بالمغالطات والذي سَلِمَ من التحريف كان للمتعة والتسلية، ومن أخطر مزاعمه: أن النبيَّ قد أَحَبَّ زينب، وهي زوجة لزيد؛ وهذا بهتان عظيم.

وإذا كان طه حسين قد أشار في المقدِّمة إلى أنه اهتمَّ باختراع الأحاديثِ، فإنَّ الحرية التي أباحها لنفسه لم تَكُنْ إلا لهوىً معيَّن، وهدفٍ واضحٍ هو أن يقدِّم عن طريق القصص من السموم ما عَجَزَ عنه عن طريق النقد والكتابة الأدبية.

يقول (غازي التوبة) في دراسته عن «طه حسين وهامش السيرة».

إنَّ طه حسين ينصِّب نفسه إماماً للأساطير اليونانية، ويضَعُ السيرة في مصافِّ الإلياذة، ويطلب من المؤلفين والكُتَّاب أنْ يَفْتَنُوا في الحديث عنها افتنان أوروبا بأساطير اليونان؛ كي

يُرْضُوا ميول الناس إلى السذاجة ويمتعوا عواطفهم وأخيلتهم، ولكن هل يتساوى الأثران في المجتمعين: (الإلياذة في المجتمع اليوناني، والسيرة في المجتمع الإسلامي؟ (وهل كانت السيرة يوماً في التاريخ موضوعاً لتسلية قصصية أو مباراة لفظية؟!

ولم تكن السيرة يوماً من الأيام وسيلةً للتسلية والترفيه؛ كما يهدف طه حسين؛ ولكنها كانت مصدراً لابتعاث الهمم ودَفْعِ النفوس المؤمنة إلى النهوض بالمجتمعات في ضَوْءِ حياة النبي وسننه.

ولقد تحدَّثَ كثيرون عن الشبهات الواردة في: (على هامش الشيرة)، ووصفها الأستاذ مصطفى صادق الرافعي بأنها «تهكُّم صريح»، وقالت صحيفة «الشهاب الجزائرية» (ذو القعدة ١٣٥٢) الموافق ١٩٣٤ تحت عنوان: دسائس طه حسين: أَلَّفَ كتاباً أسماه «على هامش السيرة» (يعني: السيرة النبوية الطاهرة)، فملأه من الأساطير اليونانية الوثنية، وَكَتَبَ ما كتب في السيرة الكريمة على منوالها، فأظهرها بمظهر الخُرَافَات الباطلة، وأساطيرِ الخيالِ، حتى يخيَّلَ للقارىء أن سيرة النبيِّ ﷺ ما هي إلا أسطورةٌ من الأساطير، وفي هذا من الدسِّ والبَهْتِ ما فيه! والدكتور طه الذي كان يقول في الإسلام ما شاء، ولا يبالي بالمسلمين أصْبَحَ اليوم يحسب للمسلمين حساباً؛ فلا يكتب إلا ويقول: إنه مُسْلِمٌ، وإنه يعظِّم الإسلام، ولكن ما انطوى عليه صدره يأبى إلا الظهورَ كما بدا جليًّا في كتابه هذا: (على هامش السيرة)!!

وقال الدكتور زكي مبارك (البلاغ ـ يناير ١٩٣٤): وأنا أُوصِي قرائي أن يقرءوا هذا الكتاب (على هامش السيرة) بروية؛ فإن فيه نواحِيَ مستورةً من حرية العقل، عَرَفَ الدكتور كيف يكتمها على الناس بعد أن راضته الأيام على إيثار الرَّمْزِ على التأليف، بعد ضربة «الشعر الجاهلي» آثر أسلوب الرمز؛ لتغطية أهدافه.

وقال الدكتور هيكل في دراسة لهامش السيرة الجزء الثاني (ملحق السياسة ٢٥/ ١٢/ ٣٧): إن اليهود لَهُمْ باعٌ طويلٌ في دس الإسرائيليات في الإسلام.

والحق أنني كنتُ أشعر أثناء قراءتي هذا الجزء الثاني من هامش السيرة، وكأنما أقرأ في كتاب من كتب الأساطير اليونانية، وليس فَصْلُ (نادي الشياطين) بأشدَّ إمعاناً في أدب الأسطورة من سائر فصول الكتابِ، وقد عرف تبعية الدكتور طه حسين لمفهوم الإسرائيليات ووجهة نظر اليهود في قضايا كثيرة مثْلُ موقفه من عبد الله بن سبإٍ في كتاب «الفتنة الكبرى».

خَامِساً: الفَوَارِقُ العَمِيقَةُ بَيْنَ النُّبُوَّةِ وَالعَبْقَرِيَّةِ:

إن التفرقة بين (النبوة) و(العبقرية) هي من أخطر ما تعرضت له كتاباتُ العصريِّينَ للسيرة النبوية فليس من المعقول أن تطلق تسمية (العبقرية) على الرسول ﷺ المؤيَّد بالوحْيِ وعلى صحابته أمثالِ أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب؛ وقد وُصِفَ الرسولُ ﷺ بالعبقرية في كتاباتِ العقاد، والبطولةِ في كتابات عبد الرحمن عَزَّام، وبَطَلِ الحرية في كتابات عبد الرحمن الشرقاوي، وكُلُّ هذه مسمَّيَاتٌ تحجب عن القارىء المسلم الصفة البارزةَ والمُهِمَّةَ الأساسية، وهي «النبوة» المؤيَّدَةُ بالوَحْي.

إن دراسة حياة النبيِّ ﷺ تحت أي اسم من شأنها أنْ تَعْجِزَ عن استيفاء جوانب هذه الشخصية العظيمة، وليس ثمة غَيْرُ منهج واحد هو أنه نبيٌّ مرسلٌ من قبل الله تبارك وتعالى، فإن هذا الفهم وَحْدَهُ هو الذي يكشف عن الحقائق الناصعة ويكشف عن صفحات السُّمُوِّ والكمال الخلقي والعقلي والنفسي.

إن كلمة (العبقرية): هي مصطلح عُرِفَ في الفكر الغربي، وتناولته الأقلام، ودَارَتْ حوله المعارك والمساجلات، وفي عام ١٩٣٥ انتقلت هذه المعارك إلى المِجَلاَّتِ العربية؛ فدارت مناقشة طويلة بين محمد فريد وجدي والدكتور أمير بقطر.

والتقطها الأستاذ العقاد، واختزنها في ذاكرته؛ ليجعَلَها عنواناً لدراسته عن الرسول التي بدأها عام ١٩٤٢.

ومن مجمل الدراسات التي دارت يتكشَّف أن هذه النظرية تجري حول التميُّز والذكاء والتفوُّق في مجال الفنِّ والموسيقَىٰ والتصوير، ولم يَرِدْ في الأسماء التي تناولتها الأبحاث أيُّ اسم من أسماء المصلحين أو أصحاب الرسالات.

ولقد قَصَرَ الدكتور أمير بقطر العبقريةَ على الذَّكَاء، وقال: إنها تجيء عن طريق الوراثة، وإنها غير مكتسبة، وأوردَتْ دوائر المعارف وصفاً للعبقرية بأنها لُغَةً ـ: الكامل في كل شيء، ويكون مبلغُ رَقْمِ قياس ذكاء العبقريِّ فوق المعتاد، وبينما يقصر أمير بقطر العبقرية على حالة اختبار الذكاء، فإن (فريد وجدي) يرى أنها: (هبة إلٰهية ثمرتها فَوْقَ القدرة البشرية، يمنحها الله لبعض الأفذاذ لِتَبْرُزَ على ألسنتهم أو على أيديهم أمورٌ لا يستطيع العقل البشريُّ أن يستقلَّ بإيجادها).

ولعل هذا هو المعنى الذي جعل العَقَّادَ يختارها؛ لِيَصِفَ بها الرسولَ مع أن جميع علماء الغرب لم يصفوا بها أحداً من الأنبياء المسيحَ أو موسَىٰ ـ عليهما السلام ـ والحقيقة: أنَّ مقاييس الجاه والثروة والعظمة التي جاءت بها العلوم المادية الحديثة تختلف تماماً عن التقديرات التي جاءت بها النبوة.

وإنَّ أيَّ قدر من الموهبة الإلٰهيَّة التي تُوصَفُ بها العبقرية يختلف اختلافاً واضحاً عن النبوة.

وبالرغم من الإختلاف في فَهْم العبقريَّة بين كتابات العَشَرَاتِ من الباحثين الغربيين، فإن أحداً لا في الغرب ولا في الشرق أدخل النبوَّة والأنبياء في هذه الدائرة، ولكن يبدو أنَّ الأستاذ العَقَّاد أراد أن يتفوَّق على صاحبيه (هيكل وطه) وقد سبقاه بعَشْرِ سنوات في كتابة السيرة باتخاذ هذا المصطلح.

يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي: يجب أن يُقْرَأَ للعقَّاد باحتياط وهو يكتب عن الإسلام؛ فالعقاد ابن العصر الحديث، أخذ ثقافته مما قَرَأَ لأدبائه وعُلَمَائه، وهو شيء كثير، وليس كل ما كتبه المستشرق يقبله المُسْلِمُ، ولا كُلُّ نظريات الغرب مُتَّفِقٌ وما قرره القرآن، ولكن العقاد اعتقد من هذه النظريات ما اعتقد، فهو ينظر إلى القرآن من خلال ما اعتقد منها، ويبدو أن مِنْ بين ما اعتقده العقاد نظرية (فريزر) في نشوء الأديان؛ فهي عنده ليستْ سماويةً، ولكنها أرضيَّةٌ نشأت بالتطور والترقِّي إلى الأحسن، ومن هنا تفضيلُ العقاد للإسلام على غيره من الأديان، فهو آخرها؛ وإذَنْ فهو خيرها، ويقول: إنْ لم يكن هذا هو تفسيرَ إطْلاَقِ أسماه الغربيين على كتابيه: (عبقرية محمد، والفلسفة القرآنية) فهذه التسمية خطأ منه ينبغي أن يتنبه إليه قارىء الكتابين من المسلمين؛ لينجو ما أمكن مما توحِي به التسميات من أن محمداً ﷺ عبقريٌّ من العباقرة، لا نبيٌّ ولا رسولٌ بالمعنى الدينيِّ المعروف في الأديان المنزَّلة؛ ويؤكِّد هذا الإيحاء أَنْ جاء الكتابُ واحداً من سلسلة كتب العبقريات الإسلامية، ولن يكون أولها، فالناشيء الذي يقرأ بعد عبقرية محمد عبقرية أبي بكر وعبقرية عمر مثلاً لا يمكن أن يَسْلَمَ من إيحاء خفيٍّ إلى نفسه أنَّ محمداً وأبا بكر وعمر من قبيل واحد، عبقريٌّ من عباقرة، وإن يكن أكبرَهُمْ جميعاً؛ كالذي سَمَّى النبيَّ ﷺ بطل الأبطال، فأوهم أنه واحد من صنفٍ ممتازٍ من الناس متجدِّدٍ على العصور، بدلاً من صنفٍ اخْتَتَم به ﷺ صنفَ الأنبياء والمرسلين من عند الله؛ فالنبيُّ والرسولُ يأتيه المَلَكُ من عند الله بما شاء الله من وَحْيٍ ومن كتاب، ولا كذلك العبقريُّ ولا البطل؛ فالنبوة والرسالة فوق البطولة والعبقرية بكثير، وكم في الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ من بطل ومن عبقريٍّ، وكلُّهم يَدِينُ له ﷺ بأنه رسول الله إلى الناس كَافَّةً ذلك العصر وما بعده، وأنه خاتم النبيين.

ويقول الأستاذ غازي التوبة: كتب العَقَّاد العبقريات؛ دفاعاً عن العظمة الإنسانية في وجه المتطاولين والحاقدين والمشوِّهين، هذه العظمة الإنسانية التي تحتاج إلى ردِّ الإعتبار في عصره، ودفاعُ العقاد عن العظمة الإنسانية هي حَلْقَةٌ من دفاعه عن الفَرْدِ وإيمانه به،

ولكن ما هي الأخطار التي هددت الفرد والعظمة وجعلَتْهُ يستلُّ قلمه سنة ١٩٤٢؛ ليكتب أول عبقرية من عبقرياته؟ في الحقيقة أن الأخطار المباشرة التي هَدَّدَتِ الوجه الآخر من إيمان العقاد بالفرد هي أنَّ النظام الديمقراطيَّ، هددته ثلاثة أخطار هي: الفاشية، والشيوعية، والمد الإسلامي، تصدى للفاشية في (هتلر في الميزان)، وتصدَّىٰ للشيوعية في كتابيه: (الشيوعية والإنسانية)، و(أفيون الشعوب)، أما تيار المد الإسلامي، فحاربه بسلاح الشخصيات فكتب العبقريات؛ ليؤكِّد صحة أفكاره في أولية الفرد في التاريخ وأحقِّيته كمحرِّك له، وليطعَنَ ويشوِّهَ الإيمان بالجانب الجماعيِّ في الإسلام، ويُشَكِّكَ في دَوْر العقائد والتربية في توجيه الأشخاص، فالعظيمُ عظيمٌ بفطرته، والعبقريُّ عبقريٌّ منذ نشأته؛ كذلك فقد ركَّز العقاد على العوامل الوراثية والتكوين الجسمانيِّ والعصبيِّ، ووضع هذه الأسباب في المرتبة الأولَىٰ في توجيه الشخصية بحيث تأتي العقيدة الإسلامية والتربية في المرتبة الثانية، إنْ كان هناك دَوْرٌ للعقيدة أو التربية.

والعقَّاد في موقفه هذا متأثِّر ببعض المدارس الأوروبية التي تقدِّس الفرد والفرديَّةَ، وتفسِّر مختلفَ حوادث التاريخ على هذَيْن الأساسَيْن، وقد أورد العقاد ذكراً لإحدى هذه المدارس التي تحدد صفاتِ العبقريِّ انطلاقاً من تكوينه الجسديِّ، وهي مدرسة (لومبروزو).

وهكذا قَوْلَبَ العقَّاد الشخصيات الإسلامية ضمن نظرياته الجاهزة في الفرد الطبائع الفردية، وهو في هذا قد حجب الجانب الربانيَّ المُعْجِزَ، وحَجَبَ الغيبيات.

فهو في موقفه من انتصار الرسول ﷺ في غزواته لا يَعْرِضُ مطلقاً لوعد الله تبارك وتعالى لرسوله، ورعايتِهِ، والملائكةِ المقاتلين، والنُّعَاسِ الذي تَغَشَّى المسلمين أمنةً، والمَطَرِ الذي طَهَّرهم، والرياحِ التي اقْتَلَعَتْ خيامَ المشركين، وتثْبِيتِهِ لأفئدة المقاتلين، وقذفِهِ الرعْبَ في قلوب الكافرين؛ فليست العوامل المادِّية هي قِوَامَ مكانة الرسول العسكرية، ولكنَّ العوامل الربانية يجب أن تضاف إلى ملكات الرسول في التخطيط.

كذلك فهو لم يكشفْ عن دَوْر الإسلام في بناء شخصية الرسول؛ فالإسلام هو الذي أعطى النبي ﷺ ذلك الإيمانَ باللهِ تبارَكَ وتعالَىٰ، والإيمانَ بأحقيَّة الموت في سبيل الله، وذلك القَدْرَ من الثبات والتضحية والإقدام والعزم والصبر.

هذا الجانب الذي تجاهله العَقَّاد واكتفَىٰ بالمقارنة بين سيدنا محمد ﷺ وبين نابليون في النواحي المادية والعسكرية؛ كذلك لم يتبين الفارق بين حروب محمد ﷺ وبين حروب نابليون، وأنها كانَتْ خالصة في سبيل الله ونَشْرِ الإسلام، وليست في سبيل المطامع والسيطرة.

ذلك أنه ناقش عبقريَّة الرسولِ العسكريةَ في ضوء العبقريات البشرية، ولم يتنبه للفوارق العميقة التي تتميز بها شخصية الرسول بوصفه نبيًّا مرسلاً، أو تلك التي هداه إليها الإسلام، وأن تميُّزه هذا يختلف عن البطولات والعبقريات البشرية الأخرى.

ومن هنا يبدو النقصُ في وزن النبي ﷺ بالعبقريات البشرية الأخرى.

كذلك فإن هذا التميز الذي عُرِفَتْ به شخصيَّة محمد ﷺ «نبيًّا ومرسلاً وهادياً» تختلف في المقارنة بينه وبين الأبطال العالميين الآخرين من ناحية؛ كما أنَّ شخصيته تختلف بينه وبين أبي بكر وعمر وغيرهم من ناحية أخرى.

لقد تَحَدَّثَ العقَّاد عن الجانب الماديِّ في شخصيَّة الرسول، وحَجَبَ تماماً الجانب الروحيَّ المتصل بالوحْي، وأظهره كمجرَّد إنسان يعمل بمواهب ممتازة وملكاتٍ خاصَّة؛ وهكذا فإن (العبقرية) التي حاول العقاد أن يقدِّم رسولَ اللهِ ﷺ من خلالها، كان حجمها ضيقاً ومجالها ناقصاً، وأخطَرُ ما أُخِذَ عليه هو أنه لم يظهر أثر الإسلام في بناء شخصية الرسول، وهو العامل الأكبر في حياته وتصرُّفاته على النحو الذي وصفته السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ بقولها: «كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ»؛ هذه الربانية الخالصة التي تعلو على طبائع البشر، وقد وصفها القرآن في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

كذلك فقد تحدَّث عن افتتان المسلمين بشخص الرسول، وانبهارِهِمْ بمواهبه، واعتبر إعجابهم به سبباً وحيداً لدخولهم في الإسلام، وعزا اجتماع الصداقات المتنوِّعة حوله بأنه كان نتيجةً لمزاياه النفسية؛ وبذلك أنكر أثر عظمة الإسلام نفسه في إيمان أصحاب النبيِّ، وليس من شك أنَّ إعجابَ المسلمين بالرسُولِ له أهيمتُهُ في مرحلة الدخول في الإسلام، ولكن تقدير المسلمين للإسلام هو العاملُ الذي ثَبَّتَهُمْ بعد ذلك على الإيمان بالإسلام، وحَفَّزَهُمْ للدفاع عنه.

إنَّ الأستاذ العقاد وقد حَارَبَ مذهب التفسير الماديِّ للتاريخ الذي قدَّمه ماركس والشيوعيةُ حرباً لا هوادة لها، خَضَعَ مع الأسف للمذهب النفسيِّ الماديِّ الذي لا يعترف بالآثار المعنويَّة المترتبة على الإيمان والعقيدة في بناء الشخصية؛ كما تجاهل جانب الغيبيات، ولم يفهم النبوَّة فهماً صحيحاً؛ ولذلك فإنَّ الجانب الروحيَّ القادر على العطاء في بناء الشخصيات، والذي صنع شخصيَّة رسول الإسلام تراه باهتاً غائماً عنده؛ وذلك لأنه اعتمد في دراسة الشخصيَّات والبطولات على مذاهب غربيَّة تتجاهَلُ النبوَّة والوَحْيَ والغيبيَّات والمعجزات، ولا تجعل لهذه العوامل الروحية والمعنوية أيَّ وزنَ وأيَّ اعتبار؛ وإنما قامت على جوانب الحس وتركيب الإنسان المادي والوراثيات وغيرها.

سَادِساً: تَطَوُّرٌ جَدِيدٌ: التَّفْسِيرُ المَارِكِسِيُّ لِلسِّيرَةِ:

ثُمَّ جاء بعد ذلك تطوُّر جديد في كتابة السيرة العصرية، وهو إخضاعها للتفسير الماركسيِّ على النحو الذي كتبه عبد الرحمن الشرقاوي تحت اسم: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ الحُرِّيَّةِ).

وقد قال الشيخ محمد أبو زهرة في توصيف هذا العمل: إن الكتابَ كان له اتجاه غير دينيٍّ في دراسته فهو ما دَرَسَ محمداً ﷺ على أنه رسُولٌ يوحَىٰ إليه؛ بل على أنه رجل عظيم له آراءٌ إجتماعيةٌ فسَّرها الكاتب على ما يريد، وقد تبيَّن أَنَّ الكاتب يقطع النبيَّ ﷺ عن الوحي؛ فكلُّ ما كان من النبي من مبادىءَ وجهادٍ في سبيله، إنما هي من عنده لا بِوَحْيٍ من الله تعالى، وهي بمقتضَىٰ بشريته لا بمقتضَىٰ رسالته، والعنوان (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) يعلن أن ما وصل إليه النبيُّ ﷺ من مبادىءَ جاهَدَ من أجلها، إنما هو صادر عن بشرية كاملة لا عن نبوَّة، وقد اقتطع هذه الجملة مما قبلها وما بعدها، ونصُّها الصحيح: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، وهو بهذا الاقتطاع ينفي الوَحْيَ عن الحياة المحمدية.

كذلك فهو ينفي الخطاب السماويَّ للرسول، ولا يذكر أَنَّ جبريل خاطَبَ النبيَّ ﷺ في العيان، وتصويرُهُ للوحي بأنَّه حُلْمٌ في النوم يخالف ما أَجْمَعَ عليه المسلمون من أَنَّ جبريلَ كان يخاطبُ النبيَّ ﷺ بالعيان لا في المنام، الأمر الذي تردَّد ذكره في القرآن على أنه رسولُ الله من الذين يصطفيهم من الأنبياء؛ ليبلِّغَ الرسالة الإلٰهية لأهْلِ الأرض؛ كذلك فهو يقطع الرسالة عن الرسُولِ، ويقطَعُ الوحي عنه، ويتجه إلى القرآن فيذكُرُ عباراته أحياناً منسوبَةً إلى النبيِّ ﷺ على أنها من تفكيره ومِنْ قوله، لا أنها قرآنٌ موحىً بها، وقائلُهُ هو الله سبحانه، وإنَّ ذلك مبثوثٌ في الكتاب بكثرة، وهو يَنْسُبُ بعضَ آي القرآن إلى النبيِّ، وكذلك ينسب إبطال التبني إلى النبي، ولا ينسبه إلى الله تبارك وتعالى، وكذلك ينسب تحريم الخمر إلى النبي، كما أنه يذكر قصص القرآن على أنه نتيجةُ تجاربِ النبيِّ ﷺ وما كانت قصص النبيُّ إلا من القرآن، وما كانت له رحلات في بلاد العرب؛ بل إنه لم يخرج من الحجاز إلا مرتَيْن؛ إحداهما: في الثانية عشرة، والثانية: في الخامسة والعشرين، ويرى الكاتب أَنَّ القرآن من كلامِ محمَّد، ولم يذكر قط على وجه التصريح أَنَّ الله تبارك وتعالى هو منزلُ القرآن وباعثُ محمَّد بالرسالة، بل إِنَّ ذِكْرَ الله تبارك وتعالى يَنْدُرُ في الكتاب، بل لا تجد له ذكراً قطُّ، ولم يذكر القرآنَ إلا نادراً بل لا تكادُ تجدُ له ذكراً قَطُّ، وإذا ذكر آية ذكر أنها هَمْهَمَةُ نَفْسِ النبيِّ ﷺ، وهو لا يذكر كلمةَ القرآن علَىٰ أنه منسوبٌ لله، في مقامٍ يومىءُ بالتشكيك في صِدْقِهِ، ويُوهِمُ بأَنَّ به تحريفاً وتبديلاً ومحاولةَ التقاطِ مِنْ واحدٍ ممن

كانوا يشتركون مع العشرات في كتابة الوَحْيِ لإثارة هذه الشبهة.

ولقد كان هذا التطوُّر في كتابة السيرة نتيجةً للأدوار التي مرَّتْ بها على أيدي السابقين.

سُقُوطُ: المَدْرَسَةِ المَادِّيَّةِ فِي السِّيرَةِ

قامت هذه المدرسة على إنكار الغَيْب والمعجزات في آنٍ، وإنكارِ الوَحْي والنبوة في آن آخر، وحاولَتْ أن تفسر الإسلام وسيرة الرسول تفسيراً ماديًا، وجَرَتْ في خضوع منكسر وراء العقلية الأوروبية، وتحت لواء ما زَعَمُوهُ من المنهج العلمي الحديث، وكانَتْ هذه المدرسة رد فعل أثاره الانبهار والشعور بالضَّعْفِ لَدَىٰ طائفة من المسلمين تَرَىٰ أن تُتَابِعَ الأوروبيين في فهم الدين والعقيدة.

ولكن سَرْعَانَ ما تكشَّفَتْ هذه النزعة، وسقَطَتْ وجهتها، وبَرَزَتْ كتابات مدرسة الأصالة التي أنكَرَتْ هذا الأسلوب الفلسفيَّ الماديَّ، وأقامت مفاهيمها على الأساس القرآني الأصيل، وظهرت تلك الكتابات بأقلام حسن البنا وأكرم العمري وحفي الرحمن المباركفوري ومحمد بن رزق الطرهوني ومحمد زين العابدين وأبي الحسن الندوي وكثيرين غيرهم، فَرَدَّتْ وأعادَتْ إلى السيرة النبوية تقدير جانب معجزة الوحي الإلٰهي والغيبيات والمعجزات.

وقد جاءت كتاباتُ مدرسة الأصالة في السيرة النبوية مصحِّحةً لأغلاط كثيرين ممن كتبوا عن السيرة في هذا العصر، وأماطَتِ اللثامَ عَنِ المغالَطَات التي كانَتْ ولا تزال تدسُّهَا أقلام كثير من المستشرقين والتغريبين، وهي أغلاطٌ ومغالطاتٌ قامَتْ لتغذيتها وترويجها مدرسةُ التبعية.

إنَّ هذه المدرسة لم تَعُدْ تخدمُ إلاَّ قلة منْ بقايا المفتونين باسمها، وإنَّ الحقائق الناصعة في حياة النبي ﷺ سَتَظَلُّ هي المشرقة والسائدة.

وليس أدلَّ على ذلك من هذه المؤتمرات للسِّيرَةِ التي حَشَدَتْ عشرات من الأعلام للكشف عن الجوانب المختلفة في حياة هذا النبيِّ الكريمِ الذي هَدَى البشرية إلى طريقها، وأخرجها من الظلمات إلى النور.

ترجمة ابن إسحاق[1]

اسمه:

محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار ويقال ابن كوثان مولى قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف وكان جده يسار من سبى عين التمر.

كنيته:

أبو بكر وقيل: أبو عبد الله القرشي المطلبي.

ولادته:

ولد ابن إسحاق سنة ثمانين وقد رأى أنس بن مالك رضي الله عنه بالمدينة وكذلك رأى سعيد بن المسيب وهو من كبار التابعين.

شيوخه:

روى ابن إسحاق رحمه الله عن جملة كبيرة من الشيوخ.

ذكر منهم الإمام جمال الدين المزي في «تهذيب الكمال» (٢٤/ ٤٠٧ ـ ٤١٠) مائة وخمس وعشرين شيخاً.

وذكر عدداً منهم أيضاً الإمام الذهبي في «السير» (٧/ ٣٤).

الرواة عن ابن إسحاق:

ذكر الحافظ المزي في «تهذيب الكمال» (٢٤/ ٤١٠ ـ ٤١١) أسماء تسعة وأربعين

---

(١) مصادر ترجمته.
طبقات ابن سعد (٧/ ٣٢١ ـ ٣٢٢)، طبقات خليفة (٢٧١، ٣٢٧) «التاريخ الكبير» (١/ ٤٠)، و«التاريخ الصغير» (٢/ ١١١)، المعارف (٤٩١ ـ ٤٩٢)، المعرفة والتاريخ (٢/ ٢٧ ـ ٢٨)، الجرح والتعديل. (٧/ ١٩١ ـ ١٩٤)، تاريخ بغداد (١/ ٢١٤ ـ ٢٣٤)، عيون الأثر (١/ ٧ ـ ١٧)، تهذيب الكمال (٢٤/ ٤٠٥ ـ ٤٢٩)، تاريخ الإسلام (٦/ ٢٧٥ ـ ٢٧٨)، تذكرة الحفاظ (١/ ١٧٢ ـ ١٧٤)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٣)، العبر (١/ ٢١٦)، تهذيب التهذيب (٩/ ٣٨)، التعريب (٢/ ١٤٤).

رجلاً رووا عنه، وذكرهم الإمام الذهبي أيضاً في السير (٧/ ٣٥) وقال: وأمم سواهم يشق استقصاؤهم ويبعد إحصائهم. وقد ذكر منهم الحافظ ابن حجر أسماء تسعة وعشرين رجلاً رووا عنه.

قلت: كلام الحافظ الذهبي رحمه الله يدل أن عدد الرواة عن ابن إسحاق كثير لم يستوعبهم ولم يستقصيهم وينقسم الرواة عن ابن إسحاق إلى فريقين.

الأول: قوم روى عنه السيرة النبوية فقط.

الثاني: قوم رووا عنه سائر أحاديثه التي رواها ووقع أكثرها في السنن وغيرها.

ـ توثيق محمد بن إسحاق:

اختلف أئمة «الجرح والتعديل» في ابن إسحاق فمنهم من وثقه ومنهم من ضعفه.

ذكر المضعفين لابن إسحاق

روى الميموني عن ابن معين: ضعيف، وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال الدارقطني لا يحتج به ولا بأبيه، وقال يحيى بن سعيد: تركته متعمداً ولم أكتب حديثه وقال ابن أبي حاتم: ضعيف الحديث، وقال سليمان التيمي كذاب، وقال مالك أشهد أنه كذاب قال وهب: ما يدريك؟ قال: قال لي هشام: أشهد أنه كذاب.

ـ الدفاع عن ابن إسحاق وذكر من وثقه:

لدىٰ اختلاف أقوال علماء الجرح والتعديل في الراوي فإن ثمة قواعد وضوابط، لا بُدَّ من الرجوع إليها، كي يُرجح بين أقوالهم ويُخرِجَ بالقول الأقرب للصواب

أولاً: تحقيق القول في أمر تكذيبه.

لقد كذَّب ابنَ إسحاق مالكُ بن أنس، وسليمان التيمي وهشامُ بن عروة ولا شك أن الكذب أعظم ما يُرمى به الراوي وأشنعه، فما مدىٰ صحة هذه التهمة النكراء!

أما مالك بن أنس فلم يعرف ابنَ اسحاق المعرفة التامة ولم يجالسه ويخبر حديثه كما صرح هو بذلك عندما استفصل منه وهب ما يدريك فقال مالك: قال لي هشام أشهد أنه كذاب أي أنه قد قلَّد هشام في أمر ابن اسحاق أضف إلى ذلك أنه كان بينهما ما يكون عادة بين الأقران من الحسد والضغينة وخصوصاً أن ابن اسحاق قد لمز بجانب مالك فقال: اعرضوا علي علم مالك فأني بيطاره. فقال مالك لما بلغته: دجال من الدجاجلة.

إذاً عاد القول إلى هشام بن عروة، وهشام قد فسر جرحه لابن اسحاق فقال: يحدث محمد بن إسحاق عن امرأتي فاطمة بنت المنذر، واللّه إن رآها قط التهذيب (٩/ ٣٥).

وهذا الجرح غير معتبر ولا مقبول لأنه قائم على مجرد الظن لذلك رده العلماء وأئمة هذا الشأن.

قال أحمد بن حنبل: ولِمَ ينكر هشام! لعله جاء فاستأذن عليها فأذنت له ـ أحسبه قال ـ ولم يعلم.

قال علي بن الميني: الذي قال هشام ليس بحجة، لعله دخل على امرأته وهو غلام فسمع منها.

قال ابن حبان: أما قول ابن حبان فليس مما يجرح به الإنسان، وذلك أن التابعين سمعوا من عائشة من غير أن ينظروا إليها، وكذلك ابن إسحاق كان سمع من فاطمة والستر بينهما مسبل.

قلت: ويعضد هذا أنه سمع منها وقد جاوزت الخمسين كما قال الذهبي.

وكيف ينكر روايته عنها، وقد روىٰ عنا غيره من الغرباء مثل محمد بن سوقة أما تكذيب سليمان التيمي فليس بمعتمد، قال الحافظ في سليمان هذا: ليس من أهل الجرح والتعديل «تهذيب ٩/ ٣٧».

وإذا كان كذلك فلا يقبل قوله في مقابلة أقوال أئمة هذا الشأن مثل أحمد وابن معين وشعبة...

والذي يبدو لي أن سليمان لما لم يكن أهلاً لئن يتكلم في الرجال قلّد بعض أهل بلده كمالك وهشام.

أماسائر أهل المدينة فعلىٰ توثيقه وقبوله، واستهجان ما قيل فه..

قال سفيان بن بن عينية: جالست ابن اسحاق منذ بضع وسبعين سنة وما يتهمه أحد من أهل المدينة، ولا يقول فيه شيئاً..

ثانياً: تضعيف ابن معين له.

إذا ما اختلفت الأقوالْ عن ابن معين بين الجرح والتعديل فامقدم رواية عباس الدوري عنه لأنه بغدادي من بلد ابن معين، وأكثر ملازمة له. وأعلم وأخبر بامتأخر من أقواله وامعتمد منها لدىٰ الإمام دون غيره.

روىٰ الدوري عن ابن معين أنه قال في ابن اسحاق ثقة وليس بحجة إنما الحجة مالك وعبيد اللّه بن عمر أي أنه ليس في درجتهم ولكنه ثقة بنفسه، ورواية الدوري هذه تتفق مع كافة الروايات عن ابن معين ولم يشذ إلا الميموني فروىٰ عن ابن معين أنهحنف فلعله قال هذا أولاً ثم رجع بعد أن ازداد خبرة في حديث الرجل، أو أن الميموني فهم من قول ابن معين السابق أنه حنفه فروىٰ بالمعنىٰ.

ثالثاً: تضعيف الدارقطني.

لا ريب أن الدارقطني إمام نقاد ذو سير للحديث واتقرار ولا يطلق الحكم مقلداً غيره وإنما بعد دراسة ونقد.

وهنا يخبر أنه قال لا يحج به ولا بأبيه، ثم قال في العلل ثقة وهذا هو الأرجح والله أعلم ـ لأنه قاله في معرض الرواية والنقد والتعليل وبيان من وافقه ومن خالفه من الثقات فعنها يكون أكثر استحضاراً لحاله، وأمره أكثر وضوحاً في نظر الداقطني.

إذا تعر هذا ظهر جلياً براءة ابن اسحاق مما وسم به وأن الأمر على توثيقه وتصديقه. ولزيادة الأمر وضوحاً دونك أقوال الأئمة والعلماء في محمد بن اسحاق صاحب السيرة.

قال شعبة بن الحجاج: ابن إسحاق أمير المؤمنين في الحديث.

قيل له ولِمَ قال: لحفظه.

قال ابن سعد: ثقة.

قال عبد الله بن المبارك: إنا وجدناه صدوقاً ثلاث مرات.

قال علي بن المديني: مدار حديث رسول الله ﷺ على ستة «وذكرهم» ثم صار علم الستة إلى اثني عشر وذكر ابن اسحاق منهم..

وقال: ما رأيت أحداً يتهم ابن إسحاق.

وقال البخاري: كان علي بن المديني يحتج بحديث ابن إسحاق.

قال أبو زرعة الدمشقي: وابن إسحاق رجل قد أجمع الكبراء على الأخذ عنه وقد اختبره أهل الحديث فرأوا صدقاً وخيراً مع مدحة ابن شهاب له.

قال ابن حبان: لم يكن أحد بالمدينة يقارب ابن إسحاق في علمه ولا يوازيه في جمعه، وهو من أحسن الناس سياقاً للأخبار.

وقال أبو يعلىٰ الخليلي: عالم كبير... وهو عالم واسع الرواية والعلم ثقة[1] وغيهم كثير. ولكن ينبغي التنبيه إى أن ابن إسحاق كثير التدليس قال أحمد بن حنبل: هو كثير التدليس جداً، إذن لا بد أن يصرح بالسماع أو الحديث حتىٰ يقبل حديثه.

قال ابن حجر: إمام المغازي صدوق يدلس ورمي بالتشيه والقدر

---

(١) راجع في ترجمة ابن إسحاق تهذيب التهذيب (٩/ ٣٥)، الجرح والتعديل ٧/ ١٠٨٧، طبقات ابن سعد ٧/ ٦٧، الثقات (٧/ ٣٨٠)، الميزان (٦/ ٥٦) (تقريب التهذيب ٨٢٥)، تاريخ بغداد (١/ ٢٣٠).

سبب تأليفه لها:

قال الخطيب[1]: أخبرنا الأزهريُّ، قال: نبأنا عبيد الله بن عثمان بن يحيى، قال: سمعتُ حامداً أبا علي الهرويَّ يقولُ: سمعْتُ الحسن بن محمد المؤدّب، قال: سمعتُ عماراً يَقُولُ: دَخَلَ محمد بن إسحاق على المهديِّ، وبين يديه ابنه، فقال له: أتعرفُ هذا يا ابن إسحاق؟ قال: نعم! هذا ابن أمير المؤمنين، قَالَ: اذهَبْ فصنِّفْ له كتاباً منذ خَلَقَ اللهُ تعالى آدَمَ عليه السلام إلَىٰ يومك هذا، قال: فذهَبَ فصنَّف له هذا الكتاب، فقال له: لقد طوَّلْتَهُ يا ابن إسحاق، اذهب فاختَصِرْهُ، قال: فذهب فاختصره، فهو هذا الكتاب المختَصَرُ، وألقى الكتابَ الكَبِيرَ في خزانة [أمير المؤمنين]، قال الحسن: وسمعْتُ أبا الهيثم يَقُولُ: صنَّفَ محمَّد بن إسحاق هذا الكتابَ في القراطيسِ، ثم صيَّر القراطيس لسلمة ـ يعني: ابن الفضل ـ فكانَتْ تُفَضَّلُ رواية سلمة على رواية غيره؛ لحال تلك القراطيس.

قال الشيخ أبو بكر: هكذا قال هذا الراوي: دَخَلَ ابن إسحاق على المهديِّ وبين يديه ابنه، وفي ذلك عندي نَظَرٌ، ولعله أراد أن يقول: دَخَلَ على المنصورِ، وبين يديه المهديُّ ابنه؛ لأن ذلك أشبه بالصواب، والله أعلم.

قلت: وقد ذكر عن ابن إسحاق أنه كان يغيرها وينقضها ويزيد فيها وينقص فقال يعقوب بن إبراهيم: سمعت أبي يقول: سمعت المغازي منه ثلاث مرات ينقضها ويغيرها[2]. وكتاب المغازي لابن إسحاق يضم كتاب المبتدأ والخلفاء الذين اعتبرهما بعضهم كتباً منفصلة لابن إسحاق.

ـ ابن إسحاق والقدر:

رمى ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ بالقدر والكلام فيه، قال الخطيب في «تاريخه»[3].

أخبرنا أبو عُمَرَ عبد الواحد بن محمَّد بن عبد الله بن مهديٍّ ـ فيما أجاز لنا ـ وحدَّثناه ثقةٌ سمعه منه، قال: أنبأنا محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة، قال: نبأنا جدي، قال: سمعْتُ سعيد بن داود الزَّنْبَرِيَّ قال: حدَّثني ـ والله ـ عبدُ العَزِيزِ بْنُ محمد الدراورديُّ،

---

(١) تاريخ بغداد (١/ ٢٢٠ ـ ٢٢١).

(٢) ينظر: «العلل ومعرفة الرجال» رواية المروذي (ص ٦١) وبرواية عبد الله بن أحمد رقم (٥٨٥٦).

(٣) تاريخ بغداد (١/ ٢٢٥).

قال: كنَّا في مجلسِ مُحَمَّد بن إسحاق نتعلَّم، فأغفى إغفاءة ثم انتبه، فقال: إني رأيتُ في المنَام الساعةَ كأنَّ إنساناً دَخَلَ المَسْجِدَ ومعه حَبْلٌ فوضعه في عُنُقِ حمارٍ، فأخرجه، فَمَا لبثْنَا أن دَخَلَ المسجدَ رَجُلٌ معه حَبْلٌ حتى وضعه في عنق ابن إسحاق، فأخرجه، فذهب به إلى السلطان، فَجُلِد، قال الزبيريُّ: من أجل القَدَرِ.

وممن رماه بالقدر أيضاً هارون بن معروف ومحمد بن عبد الله بن نمير.

قال الخطيب: وقد أمسك عن الاحتجاج بروايات ابن إسحاق غير واحد من العلماء لأسباب منها أنه كان يتشيع وينسب إلى القدر ويدلس في حديثه فأما الصدق فليس بمدفوع عنه. اهـ.

ـ ابن إسحاق والبدع

قال الجوزجاني[1]: محمد بن إسحاق الناس يشتهون حديثه وكان يرمى بغير نوع من البدع اهـ. قلت: لعل الجوزجاني يقصد كلام ابن إسحاق في القدر وأنه رمي بالتشيع خصوصاً أن الجوزجاني ناصبي يحمل على من يتشيع.

وقد وصفه الحافظ في «التقريب» كما تقدم أنه كان يتشيع ورمى بالقدر.

ـ ابن إسحاق والتدليس

وصف ابن إسحاق بالتدليس وقد رماه به غير واحد منهم الإمام أحمد[2] وغيره.

وأيده الحافظ في «التقريب».

ولابن عدي في «الكامل» كلمةٌ جامعةٌ شاملة في شأن ابن إسحاق، فقال:

ولمحمَّد بن إسحاق حديثٌ كثيرٌ، وقد روى عنه أئمة النَّاس: شُعْبَةُ، والثَّوْرِيُّ، وابنُ عُيَيْنَةَ، وحَمَّادُ بن سَلَمَةَ، وغيرهم، وقد روى «المغازي» عنه إبراهيمُ بن سَعْدٍ، وسَلَمة بن الفَضْلِ، ومحمَّد بن سَلَمَةَ، ويحى بن سعيد الأُمَوِيُّ، وسعيد بن بَزِيعٍ، وجَرِيرُ بن حازم، وزِيَادٌ البَكَّائِيُّ، وغيرهم، وقد روي عنه (المبتدأ والمَبْعَث)، ولو لم يكن لابن إسحاق من الفضلِ إلا أنَّه صَرَفَ المُلُوكَ عن الإشتغالِ بكُتُبٍ لا يَحْصُلُ منها شَيْءٌ إلى الإشتغالِ بمغازِي رسولِ اللهِ ﷺ ومبعثه ومبتدإ الخَلْقِ، لكَانَتْ هذه فضيلةً سَبَقَ بها ابنُ إسحاق، ثم مِنْ بَعْدِهِ صَنَّفَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ، فلم يَبْلُغوا مَبْلَغَ ابن إسحاق منها، وقد فَتَّشْتُ أحاديثَهُ الكثِيرَ،

---

(١) أحوال الرجال (٢٣٠) و«تهذيب الكمال» (٢٤/ ٤١٨) و«سير أعلام النبلاء» (٧/ ٤٣).

(٢) ينظر: «العلل ومعرفة الرجال» للإمام أحمد برواية المروذي رقم (١) و«تاريخ بغداد» (١/ ٢٣٠).

فلم أَجد في أحاديثه ما يتهيَّأُ أن يُقْطَعَ عليه بالضَّعْفِ، ورُبّما أخْطَأَ، أو يَهِمُ في الشَّيءِ بعد الشَّيءِ، كما يُخْطِىءُ غَيْرُهُ، ولم يَتَخلَّفْ في الرواية عنه الثِّقَاتُ والأَئمَّةُ، وهو لا بَأْسَ به.

وفاته:

اختلف في وفاة ابن إسحاق

فقال الفلاس وإبراهيم بن محمد بن عرفة: مات سنة خمسين ومائة[1].

وقال الهيثم بن عدي وأحمد بن خالد الوهبي: مات سنة إحدى وخمسين ومائة[2].

وقال ابن معين وابن المديني والسباحي: مات سنة اثنتين وخمسين ومائة[3].

وقال خليفة بن خياط: توفي سنة ثلاث أو اثنتين وخمسين[4].

واستشهد به البخاري في الصحيح وروى له مسلم متابعة واحتج به الأربعة.

ويصحح الحاكم حديثه على شرط مسلم ويوافقه الذهبي وهو وهم لأن مسلماً لم يحتج به.

---

(١) ينظر: «تاريخ بغداد» (١/ ٢٣٢) و«تهذيب الكمال» (٢٤/ ٤٢٧) وسير أعلام النبلاء (٧/ ٥٥) و«مشاهير علماء الأمصار» (١٣٩ ـ ١٤٠).

(٢) تاريخ بغداد (١/ ٢٣٢).

(٣) المصدر السابق.

(٤) طبقات خليفة (٢٧١) وتاريخه (٢٣٤).

ترجمة ابن هشام[1]

اسمه:

عبد الملك بن هشام بن أيوب الذهلي السدوسي وقيل: الحميري المعافري البصري نزيل مصر.

قال الذهبي: والأصح أنه ذهلي كما ذكره أبو سعيد بن يونس.

كنيته:

أبو محمد وقد اتفقت مصادر ترجمته على هذه الكنية.

ثناء العلماء عليه.

قال ابن الجوزي في «المنتظم» (١١/ ٣٧): في ترجمته: يروي مغازي ابن إسحاق عن زياد بن عبد الله البكائي وكان ثقة.

ووصفه الذهبي في «السير» بالعلامة النحوي الأخباري.

ـ شيوخه:

١ ـ زياد البكائي[2]

هو زياد بن عبد الله بن الطفيل العامري أبو محمد الكوفي.

وقد تلقى عنه ابن هشام السيرة لابن إسحاق قال يحيى بن آدم: عن عبد الله بن إدريس: ما أحد أثبت في ابن إسحاق من زياد البكائي. وزياد في نفسه ضعيف ولكن هو

---

(١) ينظر: ترجمته في:
مقدمة شرح السيرة للخشني (١/ ٣)، وأنباه الرواة (٢/ ٢١١ ـ ٢١٢) وفيات الأعيان (٣/ ١٧٧)، وفيات الأعيان (٣/ ١٧٧)، الوافي بالوفيات (٦/ ٢٢) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩)، البداية والنهاية (١٠/ ٢٨١ ـ ٢٨٢)، طبقات ابن قاضي شهبة (٢/ ١١١ ـ ١١٢) حسن المحاضرة (١/ ٥٣١)، بغية الوعاة (٢/ ١١٥).

(٢) ينظر: طبقات ابن سعد (٦/ ٣٩٦) و«الكامل» لابن عدي (٣/ ١٠٤٨) و«تاريخ بغداد» (٨/ ٤٧٦) و«تهذيب التهذيب» (٣/ ٣٧٥) و«تهذيب الكمال» (٩/ ٤٨٧) و«التقريب» (١/ ٢٦٨).

من أثبت الناس في هذا الكتاب وذلك أنه باع داره وخرج يدور مع ابن إسحاق حتى سمع منه الكتاب.

أقوال الأئمة في زياد بن عبد الله البكائي

قال أحمد: ليس به بأس، حديثه حديث أهل الصدق وقال ابن معين: زياد البكائي في ابن إسحاق ثقة وقال مرة: ليس بشيء.

وقال النسائي: ليس بالقوي. وقال أبو زرعة: صدوق. وقد لخص الحافظ ابن حجر أقوال الأئمة فيه فقال: صدوق ثبت في المغازي وفي حديثه عن غير ابن إسحاق لين اهـ.

٢ ـ أبو عبيدة النحوي[١]

هو الإمام العلامة البحر أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي مولاهم البصري النحوي صاحب التصانيف قال الذهبي في «السير» (٩/ ٤٤٥): ولم يكن صاحب حديث وإنما أوردته لتوسعه في علم اللسان وأيام الناس.

قال ابن معين: ليس به بأس. وقال يعقوب بن شيبة: سمعت علي بن المديني ذكر أبا عبيدة فأحسن ذكره وصحح روايته وقال كان لا يحكى عن العرب إلا الشيء الصحيح وقال المبرد: كان هو والأصمعي متقاربان في النحو وكان أبو عبيدة أكمل القوم.

٣ ـ عبد الوارث بن سعيد بن ذكوان[٢]

قال أبو حاتم: ثقة صدوق. وقال أبو زرعة: ثقة. وقال النسائي: ثقة ثبت. وقال الحافظ: ثقة ثبت رمي بالقدر ولم يثبت عنه. ومن شيوخه أيضاً الذين روى عنهم في السيرة ابن أبي عمرو بن العلاء وخلاد بن قرة السدوسي.

مؤلفاته:

١ ـ السيرة النبوية وهو كتابنا هذا.

قال القفطي في «أنباه الرواة» (٢/ ٢١٢): وهذه السيرة التي يرويها عن ابن إسحاق قد هذب منها أماكن مرة بالزيادة ومرة بالنقصان وصارت لا تعرف إلا بسيرة ابن هشام وللمصريين بها فرط غرام وكثرة رواية وعن المصريين نقلت إلى سائر الآفاق اهـ. وقال

---

(١) ينظر: «تاريخ بغداد» (١٣/ ٢٥٢)، و«معجم الأدباء» (٩/ ١٥٤) و«تهذيب التهذيب» (١٠/ ٢٤٦) وميزان الاعتدال (٤/ ١٥٥) وفيات الأعيان (٥/ ٢٣٥) و«التقريب» (٢/ ٢٦٦).

(٢) ينظر: «تاريخ الدوري» (٢/ ٣٧٧)، وتاريخ الدارمي رقم (٦١، ٦٣، ٦٤) و«التاريخ الصغير» (٢/ ٢٢١) و«تهذيب الكمال» (١٨/ ٤٧٨) و«تهذيب التهذيب» (٦/ ٤٤١ ـ ٤٤٣) والتقريب (١/ ٥٢٧).

ابن خلكان في «وفيات الأعيان» (٣/ ١٧٧) وهذا ابن هشام هو الذي جمع سيرة رسول الله ﷺ من «المغازي والسير» لابن إسحاق وهذبها ولخصها وشرحها السهيلي وهي الموجودة بأيدي الناس المعروفة بسيرة ابن هشام.

وقال السيوطي في «بغية الوعاة»(٢/ ١١٥): مُهذّب السيرة النبوية سمعها من زياد البكائي صاحب ابن إسحاق ونقّحها وحذف من أشعارها جملة.

منهج ابن هشام في السيرة

بين ابن هشام منهجه في أول كتابه فقال في «سيرته»:

وأنا ـ إن شاء الله ـ مبتدئ هذا الكتابَ بذكْر إسماعيل بن إبراهيم، ومَنْ وَلد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مِنْ وَلَدِهِ وأولادهم لأصلابهم: الأول فالأول من إسماعيل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وما يعرض مِنْ حديثهم، وتَارِكٌ ذِكْرَ غيرهم من وَلَدِ إسماعيل على هذه الجهة؛ للإختصار إلى حديث سيرة رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وتاركٌ بَعْضَ مَا ذكَرَهُ ٱبْنُ إسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيه ذِكْرٌ، ولا نَزَلَ فيه من القرآن شَيْءٌ، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيراً له، ولا شاهداً عليه؛ لما ذكرْتُ من الاختصار، وأشعاراً ذَكَرَهَا لم أَرَ أَحَداً مِنْ أَهْل العلْم بالشِّعْرِ يعرفها، وأشياء بَعْضُهَا يَشْنُعُ الحَدِيثُ به، وبَعْضٌ يَسُوءُ بَعْضَ الناسِ ذِكْرُهُ، وبعضٌ لم يُقِرَّ لنا البَكَّائِيُّ بروايته، ومُسْتَقْصٍ ـ إن شاء الله تعالى ـ ما سِوَىٰ ذلك منه بمبلغ الرواية له والعِلْمِ به.

«رواة السيرة عن ابن هشام»

قال ابن ماكولا في «الإكمال» (١/ ٤٨٠) باب البَرْقي والبَرَقي. أما البَرْقِيُّ ـ بسكون الراء ـ فهو: أحمد بن عبد الله بن عبد الرحيم البَرْقِيُّ صاحب «التاريخ» منسوبٌ إلى «بَرْقَةَ» بلد بعد «الإسكندرية» إذا توجَّه الإنسان إلى الغرب، وأخواه: محمد وعبد الرحيم بنو عبد الله بن عبد الرحيم بن سَعْيَةَ بن أبي زرعة الزهريّ البَرْقِيّ، يكنى أحمد: أبا بكر، ويكنى محمَّدٌ: أبا عبد الله، ويكنَىٰ عبد الرحيم: أبا سعيد، وهم موالي بني زُهْرَةَ؛ رَوَوْا ثلاثتُهُمْ «الْمَغَازِيَ» عن عبد الملك بن هشام، فرواها عن أحمد: محمَّد بن إسماعيل بن الفرج المهندس والد أبي بكر شيخ حكم بن محمد، ورواها عن محمد: عُبَيْدُ الله بن يحيى بن يحيى، ومحمد بن عبد السلام الخشنيُّ، ومُطَرِّفُ بن عبد الرحمن بن قيس، ورواها عن عبد الرحيم: عبد الله بن جعفر بن الورد البغداديُّ.

والثلاثة حفاظ مشهورون مصريون فأحمد بن عبد الله بن عبد الرحيم البرقي. روى

عن عمرو بن أبي سلمة وأسد السنة وابن هشام وأبي صالح وغيرهم. ووصفه الذهبي بالمحدث الحافظ الصادق. ينظر «الجرح والتعديل» (٢/ ٦١) المنتظم (٥/ ٧١) وتذكرة الحفاظ (٢/ ٥٧٠) و«السير» (١٣/ ٤٧).

ومحمد بن عبد الله بن عبد الرحيم البرقي.

من شيوخ أبي داود النسائي. سمع عمرو بن أبي سلمة التنيسي وأسد بن موسى وابن هشام وغيرهم. وله مصنف في «الضعفاء». قال ابن مؤنس: ثقة حدث بالمغازي. ينظر تهذيب التهذيب (٩/ ٢٦٣) وطبقات الحفاظ (٢٥٥ ـ ٢٥٦). وعبد الرحيم بن عبد الله بن عبد الرحيم البرقي.

قال الذهبي: المحدث راوي السيرة عن عبد الملك بن هشام. حدث أيضاً عن عبد الله بن يوسف التنيسي وطائفة حدّث عنه بالسيرة أبو محمد بن عبد الله بن جعفر بن الورد وحدث عنه بالكثير أبو القاسم الطبراني لكنه يغلط فيه ويسميه أحمد اهـ.

ينظر «السير» (١٣/ ٤٨) و«العبر» (٢/ ٧٧). وشذرات الذهب (٢/ ١٩٣).

قلت وقد ذكر الذهبي راوياً رابعاً وهو محمد بن حسن القطان. وقد روى الطبراني في «معجمه الكبير» من طريق ابن هشام أخباراً في السيرة النبوية وكذلك الحافظ ابن عساكر في «تاريخ دمشق».

ـ الأجزاء الخاصة بالسيرة النبوية ـ

وقد روى السيرة أيضاً بالإسناد المتصل الإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١/ ٥٠٦) عن ابن هشام.

وفاته:

ذكر السهيلي في «الروض الأنف» (١/ ٧) أن عبد الملك بن هشام مات سنة ثلاث عشرة ومئتين.

وقد وهمه الحافظ الذهبي في «السير» (١٠/ ٤٢٩) وصرح بأن وفاته في ثالث عشر ربيع الآخر سنة ثمان عشرة ومئتين.

منهجنا في التحقيق

تخريج الآيات القرآنيه

تخريج الأحاديث النبوية

توثيق الشواهد الشعرية

وضعنا كتاب «غريب السيرة» للخشني كل في موضعه

التعليق على بعض المسائل الواردة في الكتاب

وصف النسخ الخطية

النسخة الأولى: وهي المحفوظة بمكتبة رواق الشوام تحت رقم (٦٨) تاريخ، وعدد أوراقها (١٧٦) ق

النسخة الثانية: وهي المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٣٢) تاريخ، وعدد أوراقها (٢٧٣) ق

النسخة الثالثة: وهي المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٤٠٠) تاريخ، وعدد أوراقها (١٥٤) ق

النسخة الرابعة: وهي المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٦٣٣) تاريخ، وتقع في مجلدين، وعدد أوراقهما (١٦٨)، (٢٠٠) ق

النسخة الخامسة: وهي المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٧٠٨٣) ح وعدد أوراقها (٢٩١) ق

النسخة السادسة: وهي المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٤٢٦) تاريخ تيمور، وعدد أوراقها (٣٦٤) ص

النسخة السابعة: وهي المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢١١٠) تاريخ طلعت، وعدد أوراقها (١٦٦) ق

كما أننا اعتمدنا على نسخة شيخنا العلامة محمد محي الدين عبد الحميد علي رحمه الله تعالى.